جامعة الأزهر
كلية اللغة العربية بإيتاي البارود
المجلة العلمية

قِرَاءَةٌ فِي نَقْدِ النَّابِغَةِ الذُّبْيَانِيِّ بَيْتَي حَسَّانِ بْنِ ثَابِتٍ (لَنَا الْجَفَنَاتُ الْغُرُّ يَلْمَعْنَ بِالضُّحَى)

إعداد

د/ طه السيد عبد النبي محمود
مدرس البلاغة والنقد بكلية اللغة العربية بالقاهرة
جامعة الأزهر الشريف

(العدد السابع والثلاثون)
(الإصدار الرابع .. نوفمبر)
(١٤٤٦هـ - ٢٠٢٤م)

علمية - محكمة - ربع سنوية
الترقيم الدولي: ISSN 2535-177X

قِرَاءَةٌ فِي نَقْدِ النَّابِغَةِ الذُّبْيَانِيِّ بَيْتَي حَسَّانِ بْنِ ثَابِتٍ (لَنَا الْجَفَنَاتُ الْغُرُّ يَلْمَعْنَ بِالضُّحَى)

طه السيد عبد النبي محمود

قسم البلاغة والنقد، كلية اللغة العربية بالقاهرة، جامعة الأزهر، مصر.

البريد الإلكتروني: tahaassayyid76@azhar.edu.eg

الملخص:

يقرأُ هذا البحثُ مَا رَوَاهُ النُّقَادُ مِن العلماءِ مِن نَقْدِ النَّابغةِ الذُّبْيانيِّ بَيْتَي حسَّانِ بنِ ثابتٍ؛ وأوَّلُهُما: (لَنَا الْجَفَنَاتُ الْغُرُّ يَلْمَعْنَ بالضُّحَى) – ومواطنُ هذا النَّقْدِ: ثمانيةٌ في البيتِ الذي أوَّلُه: (لَنَا الجَفَنَاتُ)، ومضمونُ البيتِ الآخَرِ: (وَلَدْنَا بَنِي العَنْقاءِ) –؛ وذلك في نُورِ السياقِ الكُلِّيِّ للقصيدةِ، ومعانِيها، وحركةِ المعنَى فيها، ومِمَّا حتَّمَ ذلكَ أنَّ محلَّ النَّقْدِ كانَ في مقطعِ القصيدةِ، ومَوْقِعُ البيتِ في مطلقِ قصيدةِ لهُ أثَرٌ في توجيهِ معناهُ وصُوَرِ معانيهِ الجزئيَّةِ. وانْتَظَمَ ذلكَ مقدمةً، ومبحثيْنِ. وأضفْتُ إليهما مبحثًا ثالثًا عرَضْتُ فيهِ توجيهًا مُحْتَمَلًا لجهاتِ النَّقْدِ في بيتِ: (لَنَا الجفناتُ)، وبيَّنْتُ ضعْفَه. وقد انتهَى البحثُ إلى أنَّ البلاغةَ فيما قالَ حسَّانٌ، بل إنَّ أكثرَ بلاغةِ بَيْتَيْهِ هذيْنِ خَفِيَّةٌ؛ تَفْتَقِرُ إلى إحساسٍ نافذٍ ووَعْيٍ دقيقٍ بسياقِ القصيدةِ، ومقصودِهَا الأعظمِ الذي هو قولُ حسَّانٍ: (وأقْعُدُ مَكْفِيًّا بِيَثْرِبَ مُكْرَمَا)، والذي جِذْرُهُ كلمةُ: (المعروف) التي ذُكِرَتْ في مطلعِ القصيدةِ ومقطعِها، وذُكِرَتْ في وَسَطِها بلفظِ: (العُرْفِ)، ولم تخلُ هوامشُ البحثِ مِن عَرْضِ مقولاتِ العلماءِ النُّقَّادِ في البيتيْنِ؛ ليَظْهَرَ حقيقةُ إشاراتِهِم النَّقْدِيَّةِ؛ قُوَّةً وضَعْفًا.

الكلمات المفتاحية: قراءة، نقد، النابغة الذبياني، حسَّان بن ثابت، بَيْتَا حسَّان بنِ ثابتٍ

An Approach to Criticism by Annabigha Al-Dhubyani, of the Verse by Hassan bin Thabit ("Our resplendent goblets shimmer in the morning light.")

Taha Assayyid Abdennabi Mahmoud
Department of Rhetoric and Criticism, College of Arabic Language in Cairo, Al -Azhar University, Egypt.
Email: Tahassayyid76@azhar.edu.eg

Abstract:
This scholarly investigation delves into the accounts handed down by esteemed scholars regarding the poetry critique made by Annabigha Al-Dhubyani, particularly his focusing on the verses of Hassan bin Thabit. Central to this analysis is the verse, "Our resplendent goblets shimmer in the morning light," examining its linguistic and rhetorical nuances within the broader context of the poem, The criticism pivots around the interplay of imagery and meaning in the aforementioned verse and another line: "We gave birth to the sons of the Phoenix." By dissecting the poem's structure and the strategic placement of these lines, the research highlights how their positioning influences the interpretation and perceived eloquence of the poem, This paper is organized into an introduction and two main sections, supplemented by a third section which proposes a novel critique of the verse "Our resplendent goblets," illustrating its subtle deficiencies. The findings suggest that while Hassan's verse exhibits a commendable degree of eloquence, it falls short of achieving profound rhetorical impact due to a lack of deep contextual insight, The primary objective of this research is to unravel the delicate balance of rhetorical effectiveness in Hassan's statement: "And I will sit in honor in Yathrib," rooted in the concept of "Al-Ma'rouf" (the known or customary), which recurs at pivotal points in the poem. The discussion is enriched by the inclusion of critical perspectives, aiming to elucidate the inherent strengths and weaknesses of the verses in question.

Keywords: Approach, Criticism, Annabigha Al-Dhubyani, Hassan bin Thabit, the two verses of Hassan bin Thabit.

مقدمة

اللهم رُدَّنا إلى دينِكَ مَرَدًّا جميلًا؛ بأنْ تزُدَّنا إلى الشِّعْرِ الجاهليِّ حِفْظًا وفَهْمًا وفِقْهًا وتمثُّلًا وتحليلًا، اللهم إنَّا نُؤْمِنُ بأنَّ ذلكَ مِن حفظِ كتابِكَ؛ فَهْمًا لمرادِكَ وهداياتِكَ منه، ولصفةِ الإعجازِ فيهِ، اللهم إنَّا نُؤمِنُ بأنَّ ذلك مِن أجلِّ نعمِكَ علينا، وأجلِّ نعمِكَ لنا نحنُ أمةَ رسولِكَ محمدِ بنِ عبدِ اللهِ – صلى الله عليه وعلى آله وصحبِه وسلَّمَ – عامَّةً، وعلى أهلِ العلمِ خاصَّةً، وبعدُ: فإنَّ الشِّعْرَ هوَ ديوانُ العربِ، وعُنْوانُ الأدبِ، والذي لا يُشَكُّ في أنه كانَ ميدانَ القومِ؛ إذا تجارَوْا في الفصاحةِ والبيانِ، وتنازعُوا فيها قَصَبَ الرَّهانِ، والذي هوَ مَعْدِنُ دقائقِ اللغةِ والبلاغةِ، وخواصِّهما ولطائفِهما، وعليهِ المُعوَّلُ فيها[1]. فلذلكَ كانَ عِلْمَ قومٍ لم يكُنْ لهُم عِلْمٌ أصَحُّ منهُ كما قالَ سيدُنَا عمرُ بنُ الخطابِ – رضي الله عنه –[2].

ومِن مقتضَيَاتِ ذلكَ ومظاهِرِهِ: **تلكَ الأحكامُ النَّقْدِيَّةُ التي كانَ يُصْدِرُهَا بعضُ الشُّعراءِ في شِعْرِ غيرِهِم**، وهيَ مُوجَزَةٌ؛ بِنْتُ بيئتِها ومجتمعِها، ومِن ذلكَ نقدُ الشَّاعرِ الجاهليِّ؛ النَّابغةِ الذُّبْيانيِّ بيتيْنِ لسيدِنا حسَّانِ بنِ ثابتٍ المُخَضْرَمِ؛ شاعرِ الرَّسُولِ – صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ –[3]. وأوَّلُهُما: **(لَنَا الْجَفَنَاتُ الْغُرُّ يَلْمَعْنَ بالضُّحَى)**.

ومِن حقائقِ مفهومِ الشِّعْرِ ما في قولِ البُحْتريِّ:

والشِّعْرُ لَمْحٌ تَكفي إشارَتُهُ ولَيس بِالْهَذْرِ طُوِّلَتْ خُطَبُهْ[4].

---

١ ينظر: دلائل الإعجاز، للشيخِ عبد القاهر الجرجاني، عام ٢٠٠٠م. ص:٧-٩. الفقرة:٤، ٧.

٢ ينظر: طبقات فحول الشعراء، لابن سلام الجمحي ٢٤/١.

٣ لا أتعرَّضُ هنا لترجمةِ هذيْنِ الشَّاعريْنِ؛ لأنَّ الدراساتِ التي كُتِبَتْ في شعرِهما أو في بعضِه قامَتْ بحقِّ ذلك، ولا حاجةَ تَخُصُّ موضوعَ البحثِ تدعُو إلى التكرارِ.

٤ ديوان البحتري، عُنِي بتحقيقِه وشرحه والتعليق عليه: حَسَن كامل الصِّيرفي – مِن قصيدة هجاء عُبَيْد الله بن عبد الله بن طاهر ٢٠٩/١.

فذلك مِن أخصِّ صفاتِ الشِّعْرِ، وهو – كما ترى – يتطلَّبُ التَّأنِّيَ، والتفصيلَ، وطُولَ النَّفَسِ والتَّأمُّلِ، وما جَرَى في هذا الطريقِ مِن المعنى؛ فكانَ الشِّعْرُ مِن حيثُ هو شِعْرٌ قابِلًا للقراءاتِ الجديدةِ، وأنْ يَسْتَخْرِجَ منه المُتلقُّونَ جديدًا؛ بشرطِ أنْ يكونَ إمامَهُم في ذلك سياقُ القصيدةِ بكلِّ ما تتحمَّلُه كلمةُ: (سياقُ القصيدةِ).

وإذا كانَ الشاعرُ إنسانًا يُصِيبُ ويُخْطِئُ فإنَّ الشعراءَ ليسوا سواءً في ذلكَ؛ لأنهم طبَقَاتٌ، وأنا مِن الذين يعتقدونَ أنَّ (الشِّعْرَ الجاهليَّ) أجودُ الشِّعْرِ العربيِّ، وأعلاهُ، وأرفعُه، وأسْخَاهُ، وأعمقُه؛ بيانًا؛ لأنه الذي كانَ موجودًا وقتَ نزولِ القرآنِ العظيمِ، وأهلُه هُمُ الذينَ تُحُدُّوا أوَّلًا بأنْ يأتوا بمِثْلِه، أو بعشرِ سورٍ مِثْلِه مفترياتٍ، أو بسورةٍ مِن مِثْلِه؛ فليس مِن السَّهْلِ تخطئةُ شاعرٍ جاهليٍّ، أو التَّسْلِيمُ بتخطئتِه على لسانِ أحدٍ مِن أهلِ العِلْمِ، أو مِن الدَّارسينَ، لا سِيَّمَا إذا كانَ مِن الشُّعَراءِ الكِبَارِ؛ فَنًّا وصَنْعةً؛ كحسَّانِ بنِ ثابتٍ، ومِن ذلكَ تخطئةُ النابغةِ حسَّانًا في بيتَيْهِ الذي أوَّلُهما: **(لَنَا الْجَفَنَاتُ الْغُرُّ يَلْمَعْنَ بالضُّحَى)**[1]. فإذا أُضِيفَ إلى ذلكَ شهادةُ أحدٍ مِن شُيُوخِ الأدبِ والبلاغةِ والنقدِ للقصيدةِ التي كانَ بعضُ بيانِهَا محلًّا للتَّخْطِئةِ: كانَ ذلكَ مُحرِّكًا للنَّفْسِ لأَنْ تُراجِعَ هذه التَّخْطِئةَ، وهذا النقدَ الذي وُجِّهَ إلى بعضِ عناصرِ القصيدةِ؛ نعم، قد تكونُ هذه الشهادةُ تتعلَّقُ بمجموعِ القصيدةِ، لا بجميعِها؛ فمجموعُهَا جيِّدٌ، وبعضُ عناصرِهَا غيرُ جيِّدٍ؛ فقد حكَم الشيخُ أبو موسى على قصيدةِ حسَّانٍ في قولِه: "وهذه القصيدةُ مِن أجودِ الشِّعْرِ، وفيها مِن

---

١ وقولي في العنوان: (قِرَاءَةٌ فِي نَقْدِ النَّابِغَةِ الذُّبْيَانِيِّ بَيْتَي حَسَّانِ بْنِ ثَابِتٍ: لَنَا الْجَفَنَاتُ الْغُرُّ يَلْمَعْنَ بالضُّحَى): جارٍ على نَهْجِ المجازِ المرسلِ؛ لعَلاقَة الجزئيَّةِ؛ كقولِ رسولِ اللهِ – صلى الله عليه وسلم –: "إنَّ سُورَةً في القرآنِ ثلاثونَ آيةً شَفَعَتْ لصاحبِها حتَّى غُفِرَ لهُ: (تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ)[الملك:١]". سنن ابن ماجة – كتاب: الأدب، باب: ثواب القرآن، حديث رقم: [٣٧٨٦].؛ إذ لا يليقُ بعنوانِ البحثِ أنْ يَطُولَ؛ بذِكْرِ البيتيْنِ كامليْنِ.

الخواطرِ والصورِ وبراعةِ الصَّنْعةِ ما يُزاحِمُ به حسَّانٌ روائعَ امرئِ القيسِ والنابغةِ والأعشى وزهيرٍ"[1].

وتأمَّلْ دقةَ الشيخِ في حُكْمِه؛ فقد حكَم أوَّلًا بأن قصيدةَ حسَّانٍ مِن أجودِ الشِّعْرِ، ولم يقل: إنها جيِّدةٌ، وفرقٌ بينَ أنْ نقولَ: (فلانٌ عالِمٌ)، و: (فلانٌ مِن العلماءِ)؛ العدولُ عن المفردِ إلى الجمعِ في الصفةِ يدلُّ على قوةِ صفةِ العلمِ فيه؛ لأنه عُرِف وشُهِر بها، فتعبيرُ الشيخِ يعني أنها بلغَتْ مبلغًا عليًّا في جودةِ الشِّعْرِ. ثم شفَع ذلك بما فيه تعليلٌ في المعنى له، وهو قولُه: (وفيها مِن الخواطرِ والصورِ وبراعةِ الصَّنْعةِ). ثم أعادَ الحكمَ وكرَّرَه في صورةٍ أخرى، وهي الموازنةُ بينَ قصيدةِ حسَّانٍ الرائعةِ وبينَ روائعِ قصائدِ شعراءِ الطبقةِ الأُولى عندَ أهلِ العِلْمِ

١قراءة في الأدب القديم، تأليف الدكتور: محمد محمد أبو موسى – مقدمة الطبعة الثالثة – ص: أ.

وقال الشيخُ أبو موسى في سببِ تعرُّضِه لقصيدةِ حسَّانٍ: "عرضْتُ في هذا الكتابِ لرائعةِ حسَّانٍ: (أَلَمَ تَسأَلِ الرَّبْعَ الْجَدِيدَ التَّكَلُّمَا)، ولم أشرحها؛ وإنما ذكرتُها؛ لأنها كانتِ الباعثَ الذي بعَثَ قصيدةَ الفرزدقِ التي شرحتُها". انتهى مِن: قراءة في الأدب القديم – مقدمة الطبعة الثالثة، ص: (أ/أ). وقد نقَل الشيخُ أبو موسى القصةَ التي اشتملَتْ على ذلكَ، وكانَتْ قصيدةُ حسَّانٍ سببًا في أنْ يقولَ الفرزدقُ قصيدتَه الفائيَّةَ التي مطلعُها: (عَزَفْتَ بأعشاشٍ وما كِدْتَ تَعْزِفُ)، وعلَّق عليها في حوالي خمسِ صفحاتٍ، وفي هذه القصةِ أنَّ الفرزدقَ شهِد لقصيدةِ حسَّانٍ بما أرادَ الأنصاريُّ أنْ يُوَصِّلَه إليه؛ مِن أنها ذروةُ الشِّعْرِ وأعلاهُ وسنامُه. ثم نقَل قصيدةَ حسَّانٍ كاملةً، ثم علَّق عليها حوالي أربعِ صفحاتٍ، معَ بيانِه معانيَ مفرداتِها في هوامشَ؛ عندَ ذكرِهَا. يراجع: قراءة في الأدب القديم، ص:٩٧–١١٢. وفي شرْحِه فائيَّةَ الفرزدقِ استَحْضَرَ شيئًا مِن قصيدةِ حسَّانٍ أيضًا. ثم تعرَّضَ في مقدمةِ الطبعةِ الثالثةِ لها مرَّةً ثانيةً؛ لغرضِ بيانِ الخطوطِ العامَّةِ التي تُعِينُ القارئَ على دراستِها؛ وذلك مِن صفحةِ: (أ/أ) إلى صفحةِ: (ي/ي)، وهوَ عُظْمُ هذه المقدمةِ. وهذا البحثُ قد عوَّلَ على كلامِ الشيخِ، واستفادَ منهُ، ونقَل عنهُ.

بالشِّعْرِ؛ لأن كونَ قصيدةِ حسَّانٍ تُزاحِمُ روائِعَ قصائدِ هؤلاءِ يَلْزَمُ منه أن قصيدةَ حسَّانٍ مِن أجودِ الشِّعْرِ لا محالةَ؛ وكأنَّ الشيخَ أبا موسى أراد أن يُفْصِحَ عن نوعِ جودةِ قصيدةِ حسَّانٍ، وأن جودتَها مِن بابِ جودةِ قصائدِ كبارِ الشُّعَراءِ؛ أمثالِ امرئِ القيسِ، والنابغةِ، والأعشى، وزُهَيْرٍ، وهذا تَرَقٍّ في إثباتِ الحُكْمِ، وهذا الحكمُ يعني أن الشيخَ أبْصَرَ جودةَ روائعِ هؤلاءِ الأربعةِ، وكلامُه في بعضِ روائعِهم في بعضِ كتبِه يؤيدُ هذا الحكمَ، ويُصدِّقُ هذا القولَ. والشيخُ قال: (روائع امرئ القيس ...)، ولم يقل: (قصائد امرئ القيس ...)؛ لأنه ليس جميعُ شِعْرِ هؤلاءِ الأربعةِ مِن الروائعِ، وإلا لكانَتْ جميعُ قصائدِهم مُعلَّقاتٍ عندَ العربِ الذين كان الشِّعْرُ عِلْمَهُم، وهذا حكمٌ نقديٌّ مُؤسَّسٌ على أنَّ الشيخَ قرأَ جميعَ شعرِهم. ثم إنه في مقامِ الكشفِ عن جودةِ قصيدةِ حسَّانٍ ورَوْعتِها، فجعَل المقيسَ عليه والمُلْحَقَ به: (روائع امرئ ...)إلخ. والشيخُ قال: (ما يُزاحِمُ به حسَّانٌ ...)إلخ، وفي هذا التعبيرِ حُكْمانِ نقديَّانِ، أحدُهُما مبنيٌّ على الآخَرِ، أو أحدُهُما عِلَّةٌ للآخَرِ؛ فروائعُ امرئِ القيس والنابغةِ والأعْشَى وزهيرٍ قد كَثُرَ فيها (الخواطِرُ – والصُّوَرُ – وبراعةُ الصنعةِ)؛ مِمَّا هو سببٌ في تفوُّقِهِم في البيانِ، وقد كَثُرَ ذلكَ أيضًا في قصيدةِ حسَّانٍ، ولم يَكْثُرْ في كلِّ قصائدِه؛ ولذلك لم يكُن حسَّانٌ واحدًا في طبقةِ هؤلاءِ الأربعةِ؛ بمُلاحظةِ جميعِ ما قالوا مِن شِعْرٍ، ولكنَّ حسَّانًا يقتربُ مِن طبقةِ هؤلاءِ، ويكادُ يكونُ واحدًا منهم؛ بقصيدتِه هذه، وأما أن يكونَ كذلكَ بكلِّ شِعْرِه فلَا.

وقال الشيخُ أبو موسى في موضعٍ آخَرَ: "وقد راجعتُ قصيدةَ حسَّانٍ، فوجدْتُها مِن أحْسَنِ شِعْرِه؛ إنْ لم تكُن أحْسَنَه، وسأُثْبِتُها هنا؛ حتَّى تُراجِعَها، وتُحْكِمَ فَهْمَ شِعْرِها، وأهَمُّ مِن هذا أنَّ الفرزدقَ وعَى ما فيها مِن تفوُّقٍ، ودقَّةٍ، وحِذْقٍ، وبصيرةٍ؛ بمُجرَّدِ سماعِها، وقامَ يسحبُ رداءَه؛ لا يدري أينَ طَرَفُه؟، ولم يُعارِضِ الأنصاريَّ بكلمةٍ، ولم يَدْفَعْ دَعْواهُ بذِكْرِ قصيدةٍ لهُ أو لغيرِه، ويبدو أنَّ الأنصاريَّ كانَ في طَيِّهِ قَدْرٌ مِن العصبيَّةِ لليَمانيَّةِ، وكانَتْ تَسْتعِرُ أحيانًا في المجتمعِ الأوَّلِ، نرَى ذلكَ في قولِه: (وتزعمُه مُضَر)، وقد اقتَنَع الفرزدقُ بدَعْوَى

الأنصاريِّ. وقصيدةُ حسَّانٍ في تقديري أفضلُ مِن قصيدةِ الفرزدقِ التي أنشَدَها، معَ أن هذه الفائيَّةَ مِن أفضلِ شعرِه، وربما لا يُنازعُها إلَّا لامِيَّتُه:

إِنَّ الـذي سَـمَكَ السَّـمَاءَ بَنَـى لَنَـا بَيْتًـا دَعَائِمُـهُ أَعَـزُّ وَأَطْـوَلُ

وفي قصيدةِ حسَّانٍ أبياتٌ لا أجِدُها في المُعلَّقاتِ. والفرزدقُ وَعَى ذلك، واستوعبَه؛ بمُجرَّدِ السَّماعِ، ولم يُناقِشْ ... ولم يَبْقَ عندَ الفرزدقِ شَكٌّ لَمَّا سمِع قصيدةَ حسَّانٍ أنه يُواجِهُ عملًا شِعْرِيًّا في قِمَّةِ الإتقانِ، والجودةِ، وأنه لم يَسْمَعْ مِثْلَه قَطُّ؛ كما قالَ، وأنَّ هذا التَّحدِّيَ زَعْزَعَ الفرزدقَ حتَّى غابَ عنهُ الشِّعْرُ ليلةً كاملةً، وأخَذَ يُصَوِّبُ ويُصَعِّدُ في كلِّ فنٍّ مِن فنونِه التي ألِفَها وأتْقَنها، فوجَد كلَّ ذلكَ قد غاضَ، وكأنه مُفْحَمٌ ... "[1].

ومِن اللَّافِتِ هنا أنَّ الغلامَ الأنصاريَّ الذي هو مِن بني النَّجَّارِ سكَتَ عَنْ نقدِ النابغةِ بَيْتَي حسَّانٍ؛ معَ علمِه بهِ بلا ريبٍ؛ لتحدِّيهِ الفرزدقَ بقصيدةِ حسَّانٍ، ومعَ ملاحظةِ "أنَّ قولَه للفرزدقِ: (إنْ قلتَ مِثْلَها فأنتَ أشعرُ العربِ): يعني: أنَّ الأنصاريَّ يرَى أنَّ هذه القصيدةَ ذروةُ الشِّعْرِ وأعلاهُ وسنامُه، وأنَّ مَن أتَى بمِثْلِها فلَهُ هذه الذروةُ، وهو حقيقٌ بأنْ يكونَ أشعرَ العربِ، وهذا يعني أيضًا أنَّ الأنصاريَّ تفَقَّدَ شِعْرَ حسَّانٍ، وانتقَدَه، وتفَقَّدَ شِعْرَ غيرِ حسَّانٍ، وانتقَدَه، وبقِيَتْ هذه القصيدةُ؛ وهيَ صَفْوُ شِعْرِ العربِ، وذِرْوَتُه"[2]. فلم يَسْكُتْ عنه؛ لعصبِيَّةٍ، ولا لجهلٍ بالشِّعْرِ، وإنْ قُدِّرَ شيءٌ مِن هذيْنِ جدَلًا فهو العصبيَّةُ؛ لأنَّ الفرزدقَ سلَّمَ له بما قالَ، وعلى فَرْضِ ذلكَ فإنَّ موقفَ الفرزدقِ يَرُدُّ هذا الفَرْضَ، ويدلُّ في وضوحٍ على أنه غيرُ راضٍ عن نقدِ النابغةِ بالْكُلِّيَّةِ، والفرزدقُ شاعِرٌ كالنابغةِ، لا عالِمٌ، وهو على عِلْمٍ بخَبَرِ نقدِه لا محالةَ، فكانَ سُكُوتُه كسُكُوتِ الأنصاريِّ، ومدلولُ

١قراءة في الأدب القديم، ص:١٠١-١٠٢.

٢قراءة في الأدب القديم، ص:٩٩. بتصرُّف يسير في صَدْرِ النَّصِّ.

سُكُوتِه كمدلولِ سُكُوتِه؛ وكلٌّ منهما "يعلمُ مِن صاحبِه أمريْنِ لا يُخالِجُه شَكٌّ فيهما؛ أوَّلُهُما: قدرتُه الكاملةُ على استيعابِ كلِّ ما في الشِّعْرِ مِمَّا به يكونُ فَضْلُ الشِّعْرِ، وقدرتُه على انتقادِه، وتمييزِه، ومعرفةِ طبقتِه، ولن يُخْطِئَ في ذلكَ، ولن يفوتَه منه شيءٌ؛ لن يفوتَه منه عنصرٌ مِن عناصرِه، ولا خافيةٌ مِن خافيَاتِ صنعتِه، ولا لطيفةٌ مِن لطائفِ فنِّه وصياغتِه، لن تَضِيعَ منه لَمْحةٌ، ولن تَفْلِتَ منه إيماءَةٌ، ولا لفظةٌ، ولا صُورةٌ، ولا معنًى، ولا شيءٌ مِمَّا يدخلُ في بناءِ الشِّعْرِ ... والأمرُ الثاني الذي استيْقَنَه كلٌّ منهما مِن صاحبِه: أنَّ العدلَ والصدقَ في حُكُومةِ البيانِ هوَ الآخَرُ جزءٌ مِن الفِطْرةِ، ومُلازِمٌ لهذه السَّليقةِ الواعيَةِ بالشِّعْرِ، والبصيرةِ بجوهرِه ..."[١].

ولا أفْهَمُ مِن سُكُوتِ حسَّانٍ عنِ الرَّدِّ على النَّابغةِ[٢]. أنه سلَّمَ له بما قالَ؛ بل أفهمُه على أنه أدْرَكَ حَسَدَ النابغةِ له، والحاسِدُ لا يُناقَشُ[٣]. ويؤيِّدُ هذا: أنَّ حسَّانًا شهِد لنفسِه بأنَّ بيتَه: (لنا الجفنات ...): أجودُ أبياتِ قصيدتِه؛ فإنه على هذهِ الرِّوَايةِ كانَ يَعِي بلاغةَ الشِّعْرِ الخَفِيَّةَ في صيغةِ القِلَّةِ وغيرِها مِن عناصِر الإبانةِ في البيتِ؛ قال ابنُ معصومٍ المدنيُّ: "... وكانَ مِمَّن عرَض شِعْرَه في

١ قراءة في الأدب القديم، ص:١٠١-١٠٢.

٢جاء في أنوار الربيع في أنواع البديع ٢٠٩/٤: "... فلم يُحِرْ جوابًا". وجاءَ في خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب، تأليف: عبد القادر بن عمر البغدادي: (١٠٣٠-١٠٩٣). نقلا عن الأغاني ١١٣/٨: "فقامَ حسَّانٌ مُنْكسِرًا مُنْقطِعًا". والذي في الأغاني ٧/١١: "فخَنَسَ حسَّانٌ لقولِهِ". وجاءَ في تحرير التحبير لابن أبي الأصبع: ص:١٤٨: "وإنْ رُوِيَ عنهُ انْقِطاعُه في يدِ النابغةِ".

٣وجاء في خزانة الأدب: ١٠٩/٨: "قال شيخُنا ياسين الحمصي (في شرح ألفية ابن مالك): اعلَمْ أنهم قالوا: إذا قُرِن جمعُ القِلَّةِ بأل التي للاستغراقِ، أو أُضِيفَ إلى ما يدلُّ على الكثرةِ: انْصَرَفَ بذلكَ إلى الكثرةِ، وعلى هذا الإيرادِ ما قالَه النابغةُ على حَسَّانٍ، ويُقَالُ: إنَّ حسَّانًا أجابَ بذلكَ، لكنَّ قولَه: (أسيافنا) لم يُضَفْ إلى ما يدلُّ على الكثرةِ ...".

ذلكَ المُوسِمِ حسَّانُ بنُ ثابتٍ؛ فغضِبَ، وقال: أنا أشْعَرُ منكَ ومنها؛ فقال: ليس الأمرُ كما ظننتَ؛ ثم التفَت إلى الخنساءِ؛ فقال: يا خناس خاطِبِيهِ، فالتفَتَتْ إليه، فقالَتْ: ما أجودُ بيتٍ في قصيدتِكَ التي عرَضَتْها آنِفًا؟، قال: قولي: (لنا الجفنات ...)، فقالَتْ: ضعَّفْتَ افتخارَكَ، وأنزرته في ثمانيةِ مواضِعَ في بيتِكَ هذا ..."[1].

فهل ترى أنَّ جميعَ ما سبَق مِمَّا يُحرِّكُ لاستئنافِ قراءةٍ لنقدِ النابغةِ هذيْنِ البيتيْنِ؟، معَ ضميمةِ أنني لم أقِفْ – على حدِّ علمي واطِّلاعي – على دراسةٍ مستقِلَّةٍ أو دراسةٍ هي جزءٌ مِن دراسةٍ كبيرةٍ؛ قد عالجَتْ هذا النقدَ على الصفةِ التي عليها هذا البحثُ[2].؛ وهي فِقْهُ محلِّ النقدِ النَّابِغِيِّ في نُورِ سياقِ القصيدةِ؛

١أنوار الربيع في أنواع البديع ٢٠٨/٤.

٢هذا: وقد وقفتُ على: (١) دراسةٍ بعنوان: (صور المعنى الواحد بين حسان بن ثابت وكعب بن مالك – رضي الله عنهما – في ديوانيهما: دراسة بلاغية) – رسالة دكتوراة – للدكتور: مصطفى محمد حجاب حسانين – كلية اللغة العربية بأسيوط – جامعة الأزهر الشريف – لعام ١٤٣٧هـ–٢٠١٦م. وهذه الرسالةُ ذكَرَتْ أبياتًا مِن قصيدةِ حسَّانٍ منها البيتانِ المَنْقُودَانِ، لكنَّها لم تتعرَّضْ للنقدِ النَّابغيِّ لها.

(٢) وعلى أخرى بعنوان: (الأساليب الإنشائية في دفاعات حسان – رضي الله عنه – عن الدعوة الإسلامية) – رسالة ماجستير – للباحث: محمد عبد الله محمد الفقي – كلية اللغة العربية بالمنوفية – جامعة الأزهر الشريف – لعام ١٤٣٤هـ–٢٠١٣م. وهذه الرسالةُ نقَلَتْ قصةَ نقدِ البيتيْنِ مِن كتابِ: (الأغاني) لأبي الفرج الأصفهاني، ولم تُعلِّقْ على النقدِ المذكورِ بشيْءٍ.

(٣) وعلى ثالثةٍ بعنوان: (الصورة البيانية في المدحة النبوية عند حسَّان بن ثابت الأنصاري) – رسالة ماجستير – للطالب: حميد قبايلي – كلية الآداب – جامعة منتوري قسنطينة – الجمهورية الجزائرية – لعام ٢٠٠٣–٢٠٠٤م. وهذه الرسالةُ لم تتعرَّضْ لهذا النقدِ.

(٤) وكذلك الرسالةُ التي عنوانُها: (صورة المهجو في شعر حسَّان بن ثابت) – رسالة ماجستير =

وهذا هو المقصودُ الذي سيأتي قريبًا؛ وقد تأسَّسَ البحثُ عليهِ وعلى مقدمةٍ؛ هِيَ له فَرْشٌ وتوطئةٌ. وهذا المقصودُ خرَج في ثلاثةِ مباحثَ تعقبهُنَّ خاتمةٌ، وفهرسٌ للمصادرِ والمراجعِ، وللمحتوياتِ؛ الْمَبْحَثُ الْأَوَّلُ: قِرَاءَةُ فِي نَقْدِ قَوْلِ حَسَّانٍ: (وَلَدْنَا بَنِي الْعَنْقَاءِ ...)إلخ البيت. والْمَبْحَثُ الثَّانِي: قِرَاءَةُ في نَقْدِ تَعْبِيرِ حَسَّانٍ بِالْجَفَنَاتِ، وَالْغُرِّ، واللَّمَعَانِ: (يَلْمَعْنَ)، وَالضُّحَى، وَالْأَسْيَافِ، والقَطْرِ: (يَقْطُرْنَ)، و: (نَجْدَةٍ)، و: (دَمَا). والْمَبْحَثُ الثَّالِثُ: شُبْهَةٌ ضَعِيفَةٌ؛ تَقْرِيرُهَا، وَوَجْهُ ضَعْفِهَا.

=

– للطالب: سلطان عويض مطير العطوي – جامعة مؤتة – قسم اللغة العربية وآدابها – لعام ٢٠١٣م. وإنما ذكَرَتْ جملةً مِن أبياتِ القصيدةِ معلقةً عليهِنَّ مِن حيثُ الموضوعُ، وليس البيتانِ محلُّ النقدِ منهنَّ.

(٥) وعلى خامسةٍ بعنوانِ: (حسَّان بن ثابت في معايير النقد قديما وحديثا) – رسالة دكتوراة – للباحثة: بان حميد فرحان الراوي – كلية التربية (ابن رشد) – جامعة بغداد – لعام ١٤٢٥هـ–٢٠٠٥م. وهذه الرسالةُ ذكَرَتِ البيتيْنِ، وما عابَه النابغةُ على حَسَّانٍ، وانتصارَ بعضِ العلماءِ لحسَّانٍ، وبعضِهم للنَّابغةِ؛ معَ ذِكْرِ وَجْهِ كلٍّ؛ وذلكَ بإيجازٍ مُخِلٍّ: (ص:١٠٩–١١٢). وكانَ ذلكَ مِن خلالِ كتابِ: (نقد الشعر) لقُدامةَ بنِ جعفرَ، و: (الموشح) للمرزبانيِّ، وكلامِ الصُّولي فيه، و: (البديع في نقد الشِّعْرِ) لابن منقذٍ، و: (المثل السائر) لابن الأثير، و: (أنوار الربيع) لابن معصوم المدنيّ؛ دونَ أنْ تُضِيفَ هذهِ الرسالةُ شيئًا يُذْكَرُ في هذا السياقِ؛ فلم تُناقِشْ، ولم تُفصِّلْ، ولم تُحلِّلْ، ولم تُعلِّلْ، ولم تُفسِّرْ، ولم تَسْتَوْعِبْ جميعَ كلامِ العلماءِ النُّقَّادِ.

وبعدَ أنْ كتبتُ هذا البحثَ عرَفْتُ أنَّ للأستاذ الدكتور أحمد عيد عبد الفتاح حسن؛ أستاذ اللغويات: بحثًا عنوانُه: إشكاليَّةُ: (الجفنات والأسياف) في بيتِ حسَّانٍ – رضي الله عنه – بينَ الأدباءِ والنُّحَاةِ، وقد حاولتُ بكلِّ سبيلٍ ممكنٍ لي – علِم اللهُ – أنْ أحْصُلَ على نسخةٍ منه قبلَ نشرِ هذا البحثِ؛ فلم أستطِعْ.

ولَمَّا كانَ المقصودُ مؤسَّسًا على النَّظَرِ في السِّياقِ الكُلِّيِّ للقصيدةِ: كانَ مِن الضَّرُوريِّ ذِكْرُ نَصِّ القصيدةِ كاملةً مِن قَبْلِ القولِ في المقصودِ؛ قالَ حسَّانٌ – رَضِيَ اللهُ عنهُ –:

١- أَلَمَ تَسأَلِ الرَّبْعَ الْجَدِيدَ التَّكَلُّمَا بِمَدْفَعِ أَشْدَاخٍ، فَبُرْقَةَ أَظْلَمَا
٢- أَبَى رَسْمُ دَارِ الْحَيِّ أَنْ يَتَكَلَّمَا وَهَلْ يَنْطِقُ الْمَعْرُوفَ مَنْ كَانَ أَبْكَمَا؟
٣- بِـ: قَاعِ نَقِيعِ الْجِزْعِ مِنْ بَطْنِ يَلْبَنٍ تَحَمَّلَ مِنْهُ أَهْلُهُ، فَتَتَهَّمَا
٤- دِيَارٌ لِشَعْثَاءِ الْفُؤَادِ وتِرْبِهَا لَيَالِيَ تَحْتَلُّ المَرَاضَ، فَتَغْلَمَا
٥- وإِذْ هِيَ حَوْراءُ المَدَامِعِ تَرتَعِي بِمُنْدَفِعِ الوَادِي أَرَاكًا مُنَظَّمَا
٦- أَقَامَتْ بِهِ بالصَّيْفِ حتَّى بَدَا لَهَا نَشَاصٌ إذا هَبَّتْ لَهُ الرِّيْحُ أَرْزَمَا
٧- فَلَمَّا دَنَتْ أَعْضَادُهُ، ودَنَا لَهُ مِنَ الأرضِ دَانٍ جَوْزُهُ فَتَحَمْحَمَا
٨- تَحِنُّ مَطَافِيلُ الرِّبَاعِ خِلَالَهُ إذا اسْتَنَّ فِي حَافَاتِهِ البَرْقُ أَثْجَمَا
٩- وَكَادَ بِأَكْنَافِ العَقِيقِ وَئِيدُهُ يَحُطُّ مِنَ الجَمَّاءِ رُكْنًا مُلَمْلَمَا
١٠- فَلَمَّا عَلَا تُرْبَانَ، وانْهَلَّ وَدْقُهُ تَدَاعَى، وَأَلْقَى بَرْكَهُ، وتَهَزَّمَا
١١- وأصبحَ مِنْهُ كلُّ مَدْفَعِ تَلْعَةٍ يَكُبُّ العِضَاةَ سَيْلُهُ مَا تَصَرَّمَا
١٢- تَنَادَوْا بِلَيْلٍ، فَاسْتَقَلَّتْ حُمُولُهُمْ وَعَالَيْنَ أَنْمَاطَ الدِّرَقْلِ المُرَقَّمَا
١٣- عَسَجْنَ بِأَعْنَاقِ الظِّبَاءِ، وَأَبْرَزَتْ حَوَاشِي بُرُودِ القِطْرِ وَشْيًا مُنَمْنَمَا
١٤- فَأَنَّى تَلَاقِيهَا إذا حَلَّ أهلُهَا بِوَادِ يَمَانٍ مِن غِفَارٍ وَأَسْلَمَا
١٥- تَلَاقٍ بَعِيدٌ وَاخْتِلافٌ مِن النَّوَى تَلَاقِيكُهَا حتَّى تُوَافِيَ مَوْسِمَا
١٦- سَأُهْدِي لَهَا فِي كُلِّ عَامٍ قَصِيدَةً وَأَقْعُدُ مَكْفِيًّا بِيَثْرِبَ مُكْرَمَا
١٧- أَلَسْتُ بِـ: نِعْمَ الْجَارُ يُؤْلَفُ بَيْتُهُ كَذِي العُرْفِ ذا مَالٍ كثيرٍ، ومُعْدِمَا
١٨- وَنَدْمانِ صِدْقٍ تُمْطِرُ الخيرَ كَفُّهُ إذا رَاحَ فَيَّاضَ العَشِيَّاتِ خِضْرَمَا
١٩- وَصَلْتُ بِهِ كَفِّي، وَخَالَطَ شِيمَتِي وَلَمْ أَكُ سِبًّا فِي النَّدَامَى مُلَوِّمَا
٢٠- وَأَبْقَى لَنَا مَرُّ الحُرُوبِ ورُزْؤُهَا سُيُوفًا وأَدْرَاعًا وجَمْعًا عَرَمْرَمَا
٢١- أَلَسْنَا نَرُدُّ الكَبْشَ عَنْ طِيَّةِ الهَوَى ونَقْلِبُ مُرَّانَ الْوَشِيجِ مُحَطَّمَا
٢٢- وَكَائِنْ تَرَى مِنْ سَيِّدٍ ذِي مَهَابَةٍ أَبُوهُ أَبُونَا، وَابْنُ أُخْتٍ مُكَرَّمَا

٢٣- وَإِنَّا لَنَقْرِي الضَّيْفَ إِنْ جاءَ طارِقًا مِنَ الشَّحْمِ مَا أَمْسَى صَحِيحًا مُسَلَّمَا
٢٤- إِذَا اغْبَرَّ آفَاقُ السَّماءِ، فأَصْبَحَتْ كَأَنَّ عَلَيْهَا ثَوْبَ عَصْبٍ مُسَهَّمَا
٢٥- حَسِبْتُ قُدُورَ الصَّادِ حَوْلَ بُيُوتِنَا قَنَابِلَ دُهْمًا فِي المَحَلَّةِ صُيَّمَا
٢٦- يَظَلُّ لَدَيْهَا الْوَاغِلُونَ، كَأَنَّمَا يَنُوبُونَ بَحْرًا مِنْ سُمَيْحَةَ مُعْلَمَا
٢٧- لَنَا حاضِرٌ فَعْمٌ وبَادٍ كَأَنَّهُ شَمَارِيخُ رَضْوَى عِزَّةً وتكَرُّمَا
٢٨- مَتَى مَا تَزِنَّا مِنْ مَعَدٍّ بِعُصْبَةٍ وغَسَّانَ نَمْنَعْ حَوْضَنَا أَنْ يُهَدَّمَا
٢٩- بِكُلِّ فَتًى عَارِي الأَشَاجِعِ لَاحَهُ قِرَاعُ الكُمَاةِ يَرْشَحُ الْمِسْكَ وَالدَّمَا
٣٠- إذا اسْتَدْبَرَتْنَا الشَّمْسُ دَرَّتْ مُتُونَنَا كَأَنَّ عُرُوقَ الْجَوْفِ يَنْضَحْنَ عَنْدَمَا
٣١- وَلَدْنَا بَنِي الْعَنْقَاءِ وَابْنَي مُحَرِّقٍ فَأَكْرِمْ بِنَا خَالًا، وأَكْرِمْ بِنَا ابْنَمَا
٣٢- نُسَوِّدُ ذا المالِ القليلِ إذا بَدَتْ مُرُوءَتُهُ فِينَا وإِنْ كانَ مُصْرِمَا
٣٣- لَنَا الْجَفَنَاتُ الْغُرُّ يَلْمَعْنَ بالضُّحَى وَأَسْيَافُنَا يَقْطُرْنَ مِن نَجْدَةٍ دَمَا
٣٤- أَبَى فِعْلُنَا الْمَعْرُوفَ أَنْ يَنْطِقَ الْخَنَا وقَائِلُنَا بالعُرْفِ إِلَّا تَكَلَّمَا
٣٥- وكلُّ مَعَدٍّ قَدْ جَزَيْنَا بِصَنْعَةٍ فَبُؤْسِيْ بِبُؤْسَاهَا، وبِالنُّعْمِ أَنْعُمَا

وقد جرَيْتُ في ذكرِها هنا على الترتيبِ الذي ذكَرَه عليها الشيخُ أبو موسى؛ وإنْ لم يُوَثِّقْ، أو يُعلِّلْ؛ وهو غيرُ ترتيبِ أبياتِها في الديوانِ بتحقيق: عبدأ علي مهنا، وبتحقيق: عبد الله سنده، وبشرحِ: عبد الرحمن البرقوقي. وعلى كلٍّ فما وُجِّهَ إليه النقدُ مِن شِعْرِ حسَّانٍ: بيتانِ جاءَ ترتيبُهُما على خلافِ ما عليهِ ترتيبُ القصيدةِ في الديوانِ الذي له أكثرُ مِن تحقيقٍ منشورٍ، فثانيهما: (ولدنا بني العنقاء ...) مذكورٌ قبلَ أوَّلِهما: (لنا الجفناتُ الغرُّ ...)؛ وبينهما: ثلاثةُ أبياتٍ؛ على تحقيقِ: عبدأ علي مهنا، وشرحِ البرقوقي. وأربعةُ أبياتٍ؛ على تحقيقِ: عبد الله سنده. وعلى الترتيبِ الذي اختارَه أبو موسى مِن غيرِ تنبيهٍ على أنه مِن صنعِه، أو مِن تحقيقٍ آخَرَ للديوانِ: بينهما بيتٌ واحدٌ؛ هكذا:

وَلَدْنَا بَنِي الْعَنْقَاءِ وَابْنَي مُحَرِّقٍ فَأَكْرِمْ بِنَا خَالًا، وأَكْرِمْ بِنَا ابْنَمَا
نُسَوِّدُ ذا المالِ القليلِ إذا بَدَتْ مُرُوءَتُهُ فِينَا وإِنْ كانَ مُصْرِمَا
لَنَا الْجَفَنَاتُ الْغُرُّ يَلْمَعْنَ بالضُّحَى وَأَسْيَافُنَا يَقْطُرْنَ مِن نَجْدَةٍ دَمَا

وبيتُ: (لنا الجفنات ...): هو السابقُ في الذِّكْرِ على بيتِ: (ولدنا بني العنقاء ...) مقترنيْنِ؛ في سياقِ ذِكْرِهما في كتبِ الأدبِ والنقدِ؛ فالقَرْنُ بينهما مِن غيرِ فاصِلٍ؛ لسياقِ النقدِ، وليس أنَّ ذلكَ روايةٌ للقصيدةِ؛ لأنهم لم يَذْكُرُوا القصيدةَ كاملةً، ولا الفَصْلَ الذي منه هذا البيتانِ كاملًا. وأما ترتيبُهما في الذِّكْرِ فلعلَّ ذلكَ روايةٌ وصَلَتْ لمَن ذكرَهُما، أو لعلَّ ترتيبَها كذلك كانَ اعتباطِيًّا؛ لم يُراعُوا فيه روايةً ولا حِكْمةً؛ لا سِيَّمَا أنَّ نقدَهما في هذه الكُتُبِ لا يتَّصِلُ بترتيبِهما في القصيدةِ.

***

الْمَقْصُودُ

تمهيد:

= هذا النقدُ مشهورٌ في كتبِ الأدبِ والبلاغةِ والنقدِ التي يدرسُها طلابُ العلمِ، ويرجِعُ إليها الباحثونَ. وبعضُ العلماءِ يُثْبِتُه، وبعضُهُم يُضْعُفُه مُشكِّكًا فيه، وبعضُهُم يُنْكِرُه ذاهبًا إلى أنه مصنوعٌ[1]. والرَّاجِحُ عندي ثبوتُه؛ لأنه منقولٌ عن طريقِ الرِّوايَة. وجهاتُ النقدِ المُوَجَّهةُ إلى بَيْتَي حسَّانٍ أكثرُها منسوبٌ للنابغةِ، وبعضُها منسوبٌ للخنساءِ، والرَّاجِحُ عندي أنه أو معظمه للنابغةِ؛ على ما سيأتي. وبعضُهُم يَنْتَصِرُ لناقدِ حسَّانٍ، وبعضُهُم يَنْتَصِرُ لحسَّانٍ، وليس هدفي هنا مُجرَّدَ استقصاءِ ما قالَه العلماءُ القدماءُ؛ لأنه قد قامَتْ بذلكَ الرِّسالةُ التي عنوانُها: (حسَّان بن ثابت في معايير النقد قديما وحديثا)؛ على الجملةِ، وأكثرُه مُكرَّرٌ، والنَّظرُ البيانيُّ فيه جزئيٌّ؛ وإنما غرضي تقديمُ قراءةٍ جديدةٍ، وقد تبيَّنَ لي أنَّ لبعضِ ما فهمتُه في سياقِ هذه القراءةِ بذرةً في كلامِ العلماءِ النُّقَّادِ، وسيتَّضِحُ هذا بعَرْضِ كلامِهم في بعضِ حواشِي البحثِ عَقِبَ ذِكْرِ ما فهمتُه؛ لتظهرَ العَلاقَةُ

١ينظر: خزانة الأدب ٨/١٠٦-١٠٨.

بـينَ مـا قلتُـه وبـينَ كلامِهِـم. وسـأعتمدُ علـى مـا جـاءَ فـي كتـابِ: (الموشـح للمرزبـاني)؛ لاشـتمالِه علـى أكثـرِ هـذهِ الجهـاتِ، ولنقلِـه النقـدَ بـأكثرَ مِـن روايـةٍ، وسيكونُ لكلامِ غيرِه حضورٌ أثناءَ التحليلِ، وغالبًا ما يكونُ في الحاشيةِ؛ ليَظْهَرَ الفَرْقُ بينَ قراءتِهِم لمواطنِ النقدِ في البيتيْنِ – وقراءةِ هذا البحثِ.

فَإليكَ قِصَّةَ هذا النَّقْدِ في كتابٍ مِن كتبِ التراثِ؛ على أكثرَ مِن روايةٍ، قال المَرْزُبَانِيُّ: (ت:٣٨٤): "كتَب إليَّ أحمدُ بنُ عبدِ العزيزِ، أخبرَنا عُمَرُ بنُ شبَّةَ، قالَ: حدَّثَنِي أبو بكرٍ العُلَيْمِيُّ، قال: حدَّثَنا عبدُ الملكِ بنِ قُرَيبٍ، قال: كانَ النَّابغةُ الذُّبْيَانيُّ تُضْرَبُ لـهُ قُبَّـةٌ حَمْرَاءُ مِن أدَمٍ بسُوقِ عُكَاظ، فتأتيـهِ الشعراءُ، فتَعْرِضُ عليهِ أشعارَها. قالَ: فأوَّلُ مَن أنشدَه الأعشى: ميمونُ بنُ قيسٍ، أبو بَصِيرٍ، ثم أنشدَهُ حَسَّانُ بْنُ ثابتٍ الأنصاريُّ:

لَنَـا الْجَفَنَـاتُ الْغُـرُّ يَلْمَعْـنَ بالضُّـحَى وَأَسْـيَافُنَا يَقْطُـرْنَ مِـن نَجْـدَةٍ دَمَـا
وَلَـدْنَا بَنِـي الْعَنْقَـاءِ وَابْنَـي مُحَـرِّقٍ فَـأَكْرِمْ بِنَـا خَـالًا، وأَكْـرِمْ بِنَـا ابْنَمَـا

فقالَ لهُ النابغةُ: **أنتَ شاعرٌ، ولكنَّك أقللتَ جِفانَكَ وأسيافَكَ، وفخرتَ بمَن ولدتَ، ولم تفخر بمَن ولدك**. وحدثنى علىّ بن يحيى، قال: حدثنا أحمد بن سعيد، قال: حدثنا الزبير بن بكّار، قال: حدثني عمّي مصعب بن عبد الله، قال: أنشد حسانٌ نابغةَ بنى ذبيان قصيدتَه التي يقول فيها: (لنا الجفناتُ الغرُّ)، فقال له: **ما صنعتَ شيئا؛ قلّلتَ أمرَكم؛ فقلتَ: جفنات، وأسياف**. وأخبرني الصُّولي، قال: حدثني محمد بن سعيد، ومحمد بن العباس الرياشي، عن الرياشي، عن الأصمعي، عن أبي عمرو بن العلاء: كان النابغة الذبياني تُضرب له قبةٌ بسوق عكاظ من أدَم، فتأتيه الشعراء، فتَعْرِضُ عليه أشعارَها؛ فأتاه الأعشى، فكان أوَّلَ مَن أنشده. ثم أنشده حسان بن ثابت قصيدته التي منها: (لنا الجفناتُ الغُرُّ ...)، وذكر البيتيْنِ، فقال النابغة: **أنتَ شاعرٌ، ولكنك أقللت جفانك وأسيافك، وفخرت بمن ولدت، ولم تفخر بمن ولدك. قال الصُّولِيُّ: فانظر إلى هذا النقد الجليل**

الذي يدلّ عليه نقاءُ كلام النابغة، وديباجة شعره؛ قال له: أقللتَ أسيافَك؛ لأنه قال: «وأسيافنا»، وأسياف جمع لأدنى العدد، والكثيرُ سيوف. والجفنات لأدنى العدد، والكثيرُ جِفان. وقال: فخرتَ بمن ولدت؛ لأنه قال: (ولدنا بني العنقاء وابني مُحَرِّقٍ)، فترك الفخر بآبائه، وفخر بمَن ولد نساؤُه. قال: ويُروى أنّ النابغة قال له: أقللت أسيافك، ولمّعت جفانك. يريد قوله: (لنا الجفنات الغرّ)، والغرّة لمعة بياض في الجفنة؛ فكأن النابغة عاب هذه الجفان، وذهب إلى أنه لو قال: (لنا الجفناتُ البِيضُ)، فجعلها بِيضًا: كان أحْسَنَ. فلعَمْرِي إنه أحْسَنَ في الجفان، إلا أنّ الغُرّ أجلُّ لفظًا مِن البيض. قال الشيخ أبو عُبيد الله المرزبانيُّ – رحمه الله –: **وقال قومٌ ممن أنكَر هذا البيتَ في قوله: (يَلْمَعْنَ بالضُّحَى)، ولم يقل: (بالدّجى)، وفي قوله: (وأسيافنا يقطرن)، ولم يقل: (يجرين)؛ لأنَّ الجَرْيَ أكثرُ مِن القَطْرِ. وقد رُدَّ هذا القولُ، واحْتَجَّ فيه قومٌ لحسَّانٍ بما لا وجهَ لذِكْرِه في هذا الموضعِ. فأما قولُه: (فخرت بمن ولدت، ولم تفخر بمن ولدك): فلا عُذْرَ عندي لحسَّان فيهِ على مذهبِ نُقَّادِ الشِّعْرِ.** وقد احْتَرَس مِن مِثْلِ هذا الزَّلَلِ رجلٌ مِن كَلْبٍ؛ فقالَ؛ يذكرُ وِلادتَهُم لمُصْعَبِ بنِ الزُّبَيْرِ وغيرِه مِمَّن ولدَه نساؤُهم:

وعبدَ العزيزِ قَدْ ولدْنَا ومُصْعَبًا وكلثومٌ أَبٌ للصَّالِحينَ وَلُودُ

فإنه لمّا فخر بمَن ولده نساؤهم فضَّل رجالهم، وأخبر أنهم يَلِدُون الفاضلين، **وجمع ذلك في بيتٍ واحدٍ، فأحْسَنَ، وأجَادَ**"[1].

١الموشح في مآخذ العلماء على الشعراء في عدة أنواع مِن صناعة الشعر، للمرزباني، ص:٦٩–٧١. ونقل البغدادي ما ذكَرَه المرزباني في الموشح. وكذلك ذكَر أنَّ أبا الفرج الأصفهانيَّ نقَل قصةَ هذا النقدِ بسنَدِه، وأنَّ الناقدَ فيه النابغةُ، وفي الأغاني لا نجدُ ذكرًا لجهاتِ نقدِ النابغةِ؛ فالقصة مجملة جدًّا. ينظر: خزانة الأدب ٨/١١٠–١١٣. والأغاني ١١/٦–٧. وذكَر قدامةُ بعضَ جهاتِ هذا النقدَ منسوبةً إلى النابغةِ في كتابه: نقد الشعر =

= يُلاحَظُ أنَّ نَقْدَ النابغةِ لحسَّانٍ يُلاحِظُ غرضَ الفَخْرِ ويُراعِيهِ مِن حيثُ هو فَخْرٌ على الجملةِ، لا مِن حيثُ هو فَخْرُ حَسَّانٍ في هذهِ القصيدةِ؛ فإنَّ الشَّاعِرَ قد يَخْرُجُ عن عادةٍ مِن عاداتِ العربِ في الشِّعْرِ في الظاهرِ، وأمَّا بَعْدَ التَّحْقِيقِ والتَّدبُّرِ فهوَ لم يَخْرُجْ عنها، ولو راعَيْنَا عمومَ الأغراضِ والفنونِ الشِّعْرِيَّةِ دونَ استحضارٍ للسياقاتِ الخاصَّةِ لخطَّأْنا كثيرينَ مِن الشُّعَراءِ، إنَّ القولَ بأن غرضَ القصيدةِ: (الفخرُ): إجمالٌ لا يُفِيدُ في فِقْهِ الشِّعْرِ، وإنما لا بُدَّ مِن التفصيلِ؛ فهو النافِعُ لفِقْهِ الشِّعْرِ المُلائِمُ لطبيعتِه وحالِ قائلِه، فهل تَرَى أن القولَ بأن غرضَ قصيدةِ حسَّانٍ وغرضَ قصيدةِ الفرزدقِ:

=

– باب: المعاني الدال عليها الشعر، ص:٩٢–٩٤. وكذلك أسامةُ بن منقذ في كتابه: البديع في نقد الشعر – باب: التفريط، ص:١٤٦. وذكَر ابنُ أبي الأصبعِ خبرَ النقدِ على الجملةِ دونَ التفصيلِ؛ وذلك في سياقِ أنَّ القومَ الذينَ يرونَ أنَّ أجودَ الشِّعْرِ أكذبُه، وخيرَ الكلامِ ما بُولِغَ فيه: احتجُّوا بما جَرَى بينَ النابغةِ وحسَّانٍ في استدراكِ النابغةِ عليهِ تلكَ المواضِعَ؛ فإنَّ النابغةَ إنما عابَ على حسَّانٍ تركَ المبالغةِ، والقصةُ مشهورةٌ. ينظر: تحرير التحبير، ص: ١٤٨–١٥١. وذكر ابن معصوم المدني أنَّ النابغةَ استدرك على حسَّانٍ في بيْتَيْه، وذكَر بعضِ جهاتِ النقدِ، ثم قال: "ويُرْوَى هذا الاستدراكُ للخنساءِ بحضرةِ النابغةِ على وجهٍ أتمَّ مِن هذا". وجهاتُ النقدِ على لسانِها أكثرُ منها على لسانِ النابغةِ. ينظر: أنوار الربيع في أنواع البديع ٢٠٧/٤–٢١٠. وابنُ الأثيرِ ذكَر نقدَ صيغةِ القِلَّةِ منسوبًا إلى النابغةِ في: المثل السائر ١٨٦/٣. وعبد الرحمن البرقوقي حكَى قصةَ النابغةِ ونقدِه بإيجازٍ، وذكَر كلامَ الصُّوليِّ بشيءٍ مِن الإيجازِ، ونسَبَ نقدَ حسَّانٍ في قولِه: (بالضحى)، وأنَّ حقَّه أنْ يقالَ: (بالدُّجَى)، وقولِه: (الغُرُّ)، وأنَّ حقَّه أنْ يقالَ: (البِيضُ)، وقولِه: (يقطُرن)، وأنَّ الأجملَ أنْ يقالَ: (يسلْنَ)، أو: (يفِضْنَ) – إلى الخنساءِ. ينظر: شرح ديوان حسان بن ثابت الأنصاري، وضعه وضبط الديوان وصححه: عبد الرحمن البرقوقي، ص:٣٧١–٣٧٢.

عَزَفْـتَ بِأَعْشَـاشٍ وَمَـا كِـدْتَ تَعْـزِفُ وَأَنْكَرْتَ مِـنْ حَـدْرَاءَ مَـا كُنْـتَ تَعْرِفُ[1].

(الفخرُ): يفيدُ في فِقْهِ القصيدتيْنِ؟، إنَّ القولَ به يُعْمِي البصائرَ عن فِقْهِ الدَّقائقِ بين قصيدتيْنِ أو أكثرَ مِن قصيدةٍ قِيلَتَا أو قِيلَتْ في الفخرِ، أو الهجاءِ، أو الرِّثاءِ، ونحوِ ذلك.

والنابغةُ قد تجاهَلَ عَمْدًا – فيما أَرَى؛ لأنه شاعرٌ فَحْلٌ – سياقَ فخرِ حسَّانٍ في قصيدتِه هذهِ؛ لأنه سَمِعَ القصيدةَ وتلقَّاها بنَفْسِيَّةٍ كلُّهَا غَيْرَةٌ، وقد أصابَهَا ألَمُ العُرُوبةِ والشِّعْرِ والحُرِّيَّةِ العربيَّةِ الأصيلةِ[2]. هذا ما أظنُّه ظنًّا يُقارِبُ اليقينَ، ولهذا كانَ مِن هذا الظَّنِّ أنَّ النابغةَ فتَّشَ عن أيِّ عَيْبٍ في القصيدةِ في أيِّ جهةٍ مِن جهاتِ نظَرِ الشُّعَراءِ والنُّقادِ في الشِّعرِ، فلم يجِد إلا ما تعرَّضَ له، وهو عندَ الاهتداءِ بسياقِ القصيدةِ ليس بشيءٍ، تلكَ دَعْوَى، أرْجُو أنْ أُوَفَّقَ في إثباتِ بُرْهانِهَا.

= إنَّ هذهِ القصيدةَ الحسَّانيَّةَ جاهليَّةٌ، وإنَّ النابغةَ الذبيانيَّ مِن شيوخِ العربِ سِنًّا وشِعْرًا، أليس هوَ الحَكَمَ الشِّعْريَّ النقديَّ في سُوقِ عُكاظَ؟، وحسَّانٌ مِن الشعراءِ الذينَ لم يَطْرُقُوا بابًا لِمَلِكٍ، ولم يَثْبُتْ – على الأقلِّ في شِعْرِه على حَدِّ قراءَتِي وفَهْمِي – أنه كانَ كذلكَ، ونزعةُ الفخرِ عندَه قويَّةٌ، وأمَّا النَّابِغةُ فشاعرٌ طرَق أبوابَ الملوكِ، فكانَ سفيرَ الشعراءِ، وله مِن المواقِفِ ما لا تَرْضَى به المُرُوءةُ العربيةُ، والأَنَفَةُ العربيةُ، والعِزَّةُ العربيةُ، والحُرِّيَّةُ العربيةُ، والشَّرَفُ العَلِيُّ

١ديوان الفرزدق، ص:٣٨٣.

٢وفي كلامِ بعضِ العلماءِ تصريحٌ بأنَّ حسَّانًا تلَى قصيدتَه كاملةً على النابغةِ. ينظر: المحتسب في تبيين وجوه شواذ القراءات والإيضاح عنها، تأليف أبي الفتح عثمان بن جني، ١٨٧/١–١٨٨. وخزانة الأدب ١٠٨/٨. وجاء في أنوار الربيع في أنواع البديع ٢٠٨/٤: "وكان مِمَّن عرَض شِعْرَه في ذلكَ المُوسِم حسَّانُ بنُ ثابتٍ ... فقال: يا خناس خاطِبِيهِ، فالتفَتَتْ إليه، فقالَتْ: ما أجودُ بيتٍ في قصيدتِكَ التي عرَضَتْها آنِفًا؟".

العرَبِـيُّ!!، ونحـنُ بهـذا لا نـذُمُّ الشـاعرَ العظـيمَ النابغـةَ، ولا نُقلِّـلُ مِثقـالَ ذرَّةٍ مِـن شاعريَّتِه أو عربيَّتِه؛ فهو شاعرٌ فَحْلٌ؛ مِن شُعَراءِ الطبقةِ الأُولى عندَ أهلِ العلمِ بالشِّعْرِ ونقدِه، وهو مِن أصحابِ المُعلَّقاتِ؛ وإنما نحنُ في مقامِ الموازنةِ بينَه وبينَ حسَّانٍ في هذه الجزئيَّةِ. وحَسَّانٌ في هذه القصيدةِ: (شاعرٌ ملِكٌ)، وقد ظهَر ذلك في حديثِه عنِ المحبوبةِ الصَّاحِبَةِ، بَلْهَ أنْ يَظْهرَ في معاني الأبياتِ التي هي صُلْبُ القصيدةِ، وقد قابَلَ الإباءَ الذي ذكَرَه لرسمِ دار الحيِّ – وهو في الحقيقةِ يُثْبِتُه لخَصْمِ حسَّانٍ وقومِهِ الحقيقيِّ، أو لغيرِه؛ إذا كان وسيلةً فنيَّةً – بإباءٍ شديدٍ؛ يدلُّ على عظيمِ كبرياءٍ وأنَفَةٍ.

ألم يقُلْ حسَّانٌ: **(سَأُهْدِي لَهَا فِي كُلِّ عَامٍ قَصِيدَةً)**؟؛ فلم يَرْحَلْ في إثْر المَحْبُوبة؛ لسببٍ مِن أسبابِ ذلك؛ لأنه في هذه القصيدةِ شاعرٌ مَلِكٌ، فهو يقولُ: أنا أُهْدِي، ولا أُهْدَى، وذلكَ شأنُ المُلُوكِ، وحسَّانٌ لم يكُ مُتكبِّرًا على محبوبتِه: (شعثاء)؛ لأنَّ ذلك مِن طبعِه؛ ففي قولِه هذا دلالةٌ أيضًا على عظيمِ حبِّه وتعلُّقِه بها؛ فلم تزَلْ في قلبِه وعقلِه ونفسِه، وهذا لا يتعانَدُ مع طبعِه الدالِّ عليهِ هذا القولُ أيضًا؛ مِن حيثُ إنه شاعرٌ ملِكٌ، يقولُ الشيخُ أبو موسى: "... ثم وفاءَهُ وتعلُّقَهُ وصِلَتَهُ بـ: (شَعْثَاءِ الْفُؤَادِ)، ودلالتَه على ذلك وما هو أوسعُ بقولِه: **(سَأُهْدِي لَهَا فِي كُلِّ عَامٍ قَصِيدَةً)**"[١].

وقال: "و: (شعثاءُ الفؤادِ): كلمةٌ جيِّدةٌ، واصِفةٌ لشبابِها وصَبْوتِها وفَرْطِ حَمْيِها، وقد ذكَر في شِعْرِه شعثاءَ؛ وهيَ امرأةٌ تزوَّجَها حسَّانٌ، وأرادَ هنا الوصفَ"[٢]. وقد أضافَ: (شعثاء) إلى: (الفؤاد)، أي: فؤادِه، فهذهِ الإضافةُ تتضمَّنُ "معنَى: أنها شَعَّثَتْ فؤادَهُ، وأورَثَتْه انتشارًا وتبَلْبُلًا"[٣]. والعدولُ عن

١قراءة في الأدب القديم، ص:١١٠.

٢قراءة في الأدب القديم، ص:١٠٤.

٣شرح ديوان حسان بن ثابت الأنصاري، وضعه وضبط الديوان وصححه: عبد الرحمن البرقوقي، ص:٣٦٧.

الإضافةِ في: (فؤادي) إلى التعريف بـ: (أل) في قولِه: (الفؤاد): يشيرُ إلى أنها ملأت عليه فؤادَه، وأنَّ حبَّها عظيمٌ؛ قد سكَن كلَّ قلبِه وفؤادِه؛ حتَّى كأنَّ فؤادَهُ قد ضاقَ عليهِ!!؛ أفيكونُ منه إهمالٌ ومُجافاةٌ لها، وتكبُّرٌ عليها؟.

وقال حسَّانٌ: **(وَأَقْعُدُ مَكْفِيًّا بِيَثْرِبَ مُكْرَمَا)**، يقولُ حسَّانٌ: أنا لا أذهبُ إلى الملوكِ، وأنا لا أُهانُ، أذهَبْتُ وراءَ المحبوبةِ؟، فإذا لم يكُنْ مِنِّي ذَهابٌ وراءَها، وكان ذلك مِمَّا لا يُعابُ به الذَّاهِبُ؛ لأنه حبيبٌ عاشِقٌ: فكيف يكونُ مِنِّي ذَهابٌ إلى الملوكِ، والأُمراءِ، ومَن في حُكْمِهِم؟!، إن هذا ضِدُّ مَن يريدُ أن يكونَ عربيًّا مَلِكًا، فهذا مِن ديدنِ الملوك، وحسَّانٌ لم يكتفِ بأن يقولَ: **(وَأَقْعُدُ مَكْفِيًّا بِيَثْرِبَ)** حتَّى قالَ: **(مُكْرَمَا)**، فأصابَ شَرَفَ المعنى بإيجازٍ دقيقٍ بالِغٍ، يقولُ الشيخُ أبو موسى: "ثم تأمَّلْ وقَارَ حسَّانٍ وشرَفَه وكِفايتَه ونعمتَه التي أفْسَحَ معناها في لفظٍ قصيرٍ هو قولُه: **(وَأَقْعُدُ مَكْفِيًّا بِيَثْرِبَ مُكْرَمَا)**"[1].

وفي مجيءِ قولِه: **(وَأَقْعُدُ مَكْفِيًّا بِيَثْرِبَ مُكْرَمَا)** مِن بعدِ قولِه: **(سَأُهْدِي لَهَا فِي كُلِّ عَامٍ قَصِيدَةً)**؛ في نُورِ ما سبَق؛ مِن: وصفِ الخَصْبِ الذي فيهِ الظبيةُ التي شبَّه الصَّاحبةَ بها؛ في قولِه: (وإذ هيَ حوراءُ المدامعِ) إلى قولِه: (يَكُبُّ العِضاهَ سَيْلُه ما تصَرَّمَا): (٥-١١). ومِن: ذِكْرِ رِحْلةِ المحبوبةِ وأثْرابِها في قولِه: (تنادَوْا بليلٍ) إلى قولِه: (تلاقيكما حتَّى تُوافِيَ مَوْسِمَا)(١٢-١٥) -: أنه استجابَ لنداءِ العيشِ الهنيءِ الذي قد توفَّرَتْ أسبابُه بقُوَّةٍ، وكانَ في القصيدةِ إشارةٌ إليها في سِبَاقِ هذا البيتِ؛ وهو أبياتُ وصفِ النَّعِيمِ الذي كانَتْ فيه الصَّاحبةُ: (٥-١١). وفي لحاقِه؛ فأمَّا ما في اللِّحاقِ فظاهرٌ، وسيأتي ذكرُه، وأمَّا ما في السِّباقِ فمنهُ قولُه:

عَسَجْنَ بِأَعْنَاقِ الظِّبَاءِ، وَأَبْرَزَتْ حَوَاشِي بُرُودِ القِطْرِ وَشْيًا مُنَمْنَمَا

١قراءة في الأدب القديم، ص:١١٠.

والمعنى: "مَدَدْنَ أعناقًا كأعناقِ الظِّباءِ، وأظهرَتْ جوانبُ البُرُودِ اليمانيَّةِ وَشْيًا مُنَمْنَمًا، أرادَ: ما على الهوادجِ مِمَّا يدلُّ على وَفْرَةِ النِّعْمةِ"[١]. إنَّ صَدْرَ هذا البيتِ: (عَسَجْنَ بأعناقِ الظِّباءِ): يشيرُ إلى "حُسْنِهِنَّ وحُبِّهِنَّ وتعلُّقِهِنَّ وحنينِهِنَّ، وتعلُّقِهِنَّ بالأرضِ التي يَرْحَلْنَ عنها، وما هُنَّ فيه مِن نعمةٍ، كلُّ ذلك وأكثرَ منه بكلمةٍ واحدةٍ تَبْلُغُ الغايةَ في الحُسْنِ، وهي قولُه: (عَسَجْنَ بأعناقِ الظِّبَاءِ). ثم يُقابِلُ حُبَّهُنَّ وَوُدَّهُنَّ وتعلُّقَهُنَّ بالدِّيارِ – بحُبِّه وَوُدِّه وتعلُّقِه بهِنَّ، وذلك بإشارةٍ بالِغةِ الدِّقَّةِ، وهي حديثُه عن الدِّرقل المُرقم والوَشْي المُنمنمِ؛ لأن معنى هذا: أن عينَه معقودةٌ بهوادجِهِنَّ، ترى ما ظهَر وما خفِي، حتى الوشي المنمنم"[٢]. وأمَّا المحبوبةُ فلم تهتمَّ بذلكَ العيشِ السعيدِ، وآثَرَتِ الرَّحِيلَ عليهِ غيرَ مُحْتفِلةٍ بهِ؛ لذلكَ قالَ: (سأُهْدِي إليها ...)إلخ.

وقال حسَّانٌ: **(وَلَمْ أَكُ سِبًّا فِي النَّدَامَى مُلَوَّمَا)**، أي: ولم أكُ مُؤذيًا كثيرَ السِّبابِ، ويُكْثِرُ الناسُ لوْمِي؛ لسوءِ فعلِي[٣]. وهذا يُلاحِظُ كَوْنَه شاعرًا. ولاحِظْ أنه قال قبلَ ذلك: **(أَلَسْتُ بِـ: نِعْمَ الْجَارُ يُؤْلَفُ بَيْتُهُ * كَذِي العُرْفِ ذا مَالٍ كثيرٍ، ومُعْدِمَا * وَنَدْمانِ صِدْقٍ تُمْطِرُ الخيرَ كَفُّهُ * إذا رَاحَ فَيَّاضَ العَشِيَّاتِ خِضْرَمَا * وَصَلْتُ بِهِ كَفِّي، وَخَالَطَ شِيمَتِي}**، فحسَّانٌ يُؤْلَفُ بيتُه، وهو وَصُولٌ لمَن تُمْطِرُ الخيرَ كفُّه، فكيف يكونُ حالُ حسَّانٍ الواصِلِ؟!!، وكيف يكونُ حالُ قومِه؟!!، وهذا يُلاحِظُ كَوْنَ حسَّانٍ مَلِكًا أو كالمُلُوكِ. ويدخلُ فيه أيضًا قولُه: **(وَإِنَّا لَنَقْرِي الضَّيْفَ إِنْ جاءَ طارِقًا ...)**إلخ، يريدُ أن يقولَ: إنَّا نُقْصَدُ كالمُلُوكِ؛ ألسنا مِمَّن يُؤلَفُ بيوتُهُم؟، وإذا كان كرمُهُم يُصِيبُ مَن يَقْصِدُهُم فإنه يَبحثُ عمَّن يَحتاجُ إليه

١قراءة في الأدب القديم، ص:١٠٤.

٢قراءة في الأدب القديم – مقدمة الطبعة الثالثة، ص: (ب/ب).

٣ينظر تفسير: (سِبًّا)، و: (مُلَوَّمَا) في: ديوان حسان بتحقيق: عبد الله سنده، ص:٢٣٧. وقراءة في الأدب القديم، ص:١٠٦. وفي الديوان: (عِضًّا) مكان: (سِبًّا).

مِمَّن لم يَطْرُقُوا بيوتَهُم؛ وهذا مُسْتفَادٌ مِن قولِه: (وصلتُ به كفِّي)؛ فحسَّانٌ يُقارِبُ ويُؤازِرُ مَن تُمْطِرُ الخيرَ كفُّه، ويجعلُه يُخاطِبُ طبْعَه – وهذا مِن ديدن الملوك –، وكفُّ حسَّانٍ هو الآخَرُ سحابةٌ تُمْطِرُ الخيرَ كلَّ الخيرِ وكلَّ ما هو حقيقٌ بأن يكونَ خيرًا؛ فكيفَ يكونُ معَ الفقراءِ والمُحتاجِينَ الذينَ يطرقونَ بابَه وأبوابَ قومِه؟، وأفْهَمُ أنَّ هذا النَّدْمانَ إنما أمْطَرَتْ الخيرَ كَفُّه؛ لأنَّ حسَّانًا وصَل بهِ كَفَّه، وتكرارُ ذِكْرِ الكَفِّ يُؤنِسُ بهذا الفَهْمِ، ويُؤيِّدُهُ. وراجعِ البناءَ للمجهولِ في قولِه: (يُؤْلَفُ بيتُه)، ولا يصِحُّ أنْ نُقدِّرَ الفاعلَ المحذوفَ بالناسِ، وإنما بكلِّ ما مِن شأنِه أنْ يَأْلَفَ؛ فالناسُ جميعًا يأْلَفُونَ بيتَه؛ الغنيُّ منهم، والفقيرُ، والصغيرُ، والكبيرُ، والذَّكَرُ، والأُنْثَى؛ وهكذا؛ لأنه نِعْمَ الجارُ؛ ولأنه: (كذي العُرْفِ؛ ذا مالٍ كثيرٍ، ومُعْدِمَا)؛ فهو يحلُّ مشاكلَهُم، ويقضِي حوائجَهُم في غيرِ القَرْي بالطعامِ والشرابِ، والكِلابُ تألَفُ بيتَهُ؛ والإبِلُ والخيلُ وكلُّ ما يَصْحَبُ الإنسانَ في هذهِ البيئةِ: كذلكَ؛ تألَفُ بيتَه؛ ما هذا العمومُ في الكَرَم والجُودِ؟!.

وحذفُ نونِ: (نا) في قولِه: (**وَإِنَّـا**) –؛ إذ الأصلُ: (وإنَّنَا) –: يشيرُ إلى سرعةِ قَرْي الضيفِ، والإسراعُ في قَرْيِهِ قَرْيٌ، وهذا الإسراعُ وراءَه أن القَرْيَ مِن طباعِهِم وراسِخٌ فيهم، وأن الكُبَراءَ مِن قومِ حسَّانٍ مُطَاعُونَ مِن فتيانِهم وفتياتِهم وخُدَّامِهِم، فقَرْيُهُم قَرْيُ الملوكِ، ولاحِظْ أنَّ السُّرعةَ تتعلَّقُ بفاعلِ القَرْيِ، فلهذا كانَ المحذوفَ نونُ: (نا).

والتعبيرُ بـ: (**إِنْ**) في قولِه: (**إِنْ جَاءَ طَارِقًا**): يَلْحَظُ أُبَّهَةَ حسَّانٍ وقومِه، وهَيْبَتَهُم، وجلالَهُم. وأنَّ الضيفَ بمجردِ أن يَطْرُقَ بابَهُم يكونُ الجميعُ في خدمتِه والاهتمامِ به، راجِعِ التقابُلَ بينَ الجمعيَّةِ في قولِه: (**وَإِنَّا لَنَقْرِي**) – والإفرادِ في قولِه: (**الضَّيْفَ إِنْ جاءَ طارِقًا**)؛ فالواحدُ تَقْرِيهِ جماعةٌ، هذا على ظاهرِ لفظِ: (**الضَّيْف**)، وحسَّانُ هو المُتحدِّثُ في القصيدةِ بلسانِ قومِه. وحسَّانٌ ذكَر أنه يَصِلُ مَن تُمْطِرُ الخيرَ كفُّه، فهل يُوجَدُ مع مَن تُمْطِرُ الخيرَ كفُّه ومعَ صِلةِ حسَّانٍ ووصلِه ومخالطتِه له – محتاجونَ؟، وإذا وُجِد فهَلْ سيكونونَ كثيرينَ؟، إنهم

قِلَّةٌ، فكانَ اصطفاءُ: (إنْ) مُصوِّرًا ذلك كلَّهُ، وهيَ – على هذا – على ظاهرِهَا وأصلِهَا.

فهل لأحدٍ بعدَ هذا أنْ يَفْهَمَ التعبيرَ بجَمْعِ القِلَّةِ: (الجفناتُ)، و: (أسيافُنا) على أنه أضْعَفَ الفخرَ بالكرمِ؟!، أليْسَتْ هذه المعاني سياقًا نَفْهَمُ في نُورِهِ مِثْلَ هذا التعبيرِ؟، أليْسَتْ هذه المعاني تجعلُنا نبحثُ عن تأويلٍ سياقيٍّ للتعبيرِ: (الجفناتُ)، و: (أسيافُنا)، وغيرِهما مِمَّا كانَ محلَّ النقدِ، وأنَّ هذا التأويلَ يريدُه الشاعرُ؛ لأنه الذي قالَ هذه المعانيَ؟. النابغةُ تجاهَلَ كلَّ أولئكَ، وتبِعَه فيما ذهَبَ إليه مَن تبِعَه، ولم يلتفتِ الدارسونَ إليهِ!.

والنابغةُ الذبيانيُّ: هو المُهْدَى مِن الملوكِ والأمراءِ، فهو سَفيرُ الشعراءِ، وعَلاقتُه بالغساسنةِ والمناذِرةِ معروفةٌ، فلم يقعُد في بيتِه مُكرَّمًا كحسَّانٍ، وإنما رحَل إلى هذا وذاك، فكان مَوْصُولًا بهِم، آلِفًا بيوتَهُم، وكانَ منه ما عدَّه بعضُ الملوكِ سُوءًا، فلامَهُ عليه، واشتدَّ عليه في اللَّوْمِ.

يقولُ النابغةُ؛ يمدحُ النعمانَ، ويعتذِرُ إليهِ:

١- أَتَانِي – أَبَيْتَ اللَّعْنَ – أَنَّكَ لُمْتَنِي وَتِلْكَ الَّتِي أَهْتَمُّ مِنْهَا، وَأَنْصَبُ
٢- فَبِتُّ كَأَنَّ الْعَائِدَاتِ فَرَشْنَنِي هَرَاسًا بِهِ يُعْلَى فِرَاشِي، وَيُقْشَبُ
٣- حَلَفْتُ فَلَمْ أَتْرُكْ لِنَفْسِكَ رِيبَةً وَلَيْسَ وَرَاءَ اللهِ لِلْمَرْءِ مَذْهَبُ
٤- لَئِنْ كُنْتَ قَدْ بُلِّغْتَ عَنِّي خِيَانَةً لَمُبْلِغُكَ الْوَاشِي أَغَشُّ وَأَكْذَبُ
٥- وَلَكِنَّنِي كُنْتُ امْرَءًا لِيَ جَانِبٌ مِنَ الْأَرْضِ فِيهِ مُسْتَرَادٌ وَمَذْهَبُ
٦- مُلُوكٌ وَإِخْوَانٌ إِذَا مَا أَتَيْتُهُمْ أُحَكَّمُ فِي أَمْوَالِهِمْ، وَأُقَرَّبُ
٧- كَفِعْلِكَ فِي قَوْمٍ أَرَاكَ اصْطَنَعْتَهُمْ فَلَمْ تَرَهُمْ فِي شُكْرِ ذَلِكَ أَذْنَبُوا
٨- فَلَا تَتْرُكَنِّي بِالْوَعِيدِ كَأَنَّنِي إِلَى النَّاسِ مَطْلِيٌّ بِهِ الْقَارُ أَجْرَبُ
٩- أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ أَعْطَاكَ سَوْرَةً تَرَى كُلَّ مَلْكٍ دُونَهَا يَتَذَبْذَبُ
١٠- بِأَنَّكَ شَمْسٌ، وَالْمُلُوكُ كَوَاكِبٌ إِذَا طَلَعَتْ لَمْ يَبْدُ مِنْهُنَّ كَوْكَبُ
١١- وَلَسْتَ بِمُسْتَبْقٍ أَخًا لَا تَلُمُّهُ عَلَى شَعَثٍ، أَيُّ الرِّجَالِ الْمُهَذَّبُ؟

١٢- فَـإِنْ أَكُ مَظْلُومًـا فَعَبْـدٌ ظَلَمْتَـهُ وَإِنْ تَـكُ ذَا عُتْبَـى فَمِثْلُـكَ يُعْتِـبُ[١].

راجِعِ البيتَ الأولَ في القصيدةِ، وأن النعمانَ لامَه على شيءٍ ما، وأن ذلك جعَلَه ذا هَمٍّ ونَصَبٍ، أي: عناءٍ ومشقَّةٍ. والشاعرُ تغيَّرَ حالُه إلى الأسوأ؛ فهو يضطجعُ على فراشٍ قد عُولِيَ بالشَّوْكِ، فهو يَتَمَلْمَلُ عليه، ويَتَقَلَّبُ!. ثم لم يكتفِ بذلك، بل حلَفَ له بالله ليُصدِّقَنَّه، ويَقْبَلَنَّ اعتذارَهُ، وهل يفعلُ ذلك شاعرٌ عربيٌّ مَلِكٌ؟. وهل تتدنَّى حريَّةُ العربيِّ وأنفَتُه إلى حدِّ الاعتذارِ بوصفِ الواشي بالغشِّ والكذبِ؟!. ثم ذكَر الشاعرُ أنَّ له مُتَّسَعًا وتمكُّنًا مِن الأرضِ، وهو بذلك يصفُ نهوضَه إلى الغسَّانيِّينَ، وتمكُّنَه فيهم، والملوكُ والإخوانُ هُمُ الغسَّانيُّونَ، وكانَ قد حَلَّ بهِم؛ حينَ فَرَّ مِن النعمانِ، فأكرموه، وقرَّبُوا منزلتَه. ثم ذكَر أنه واحدٌ مِمَّن إذا أصابَهُم عطاءُ الملوكِ شكرَهُم، فهو شاعرٌ يُهْدَى، ويُعْطَى، ويرتحِلُ؛ لذلك، يقولُ: لقد فعَل بي الغسَّانيُّون ما أوجبَ لهم مدحِي وثنائِي، كما فعلتَ أنتَ في قومٍ اصطنعتَهُم، وأحسنتَ إليهم، فينبغي أن لا تَرَانِي مُذْنِبًا في شُكْرِ ذلك للغسَّانيِّينَ؛ لاصطناعِهِم إلَيَّ؛ كما لا ترى مَن اصطنعتَه، فيشكُرُكَ: مُذْنِبًا في شُكْرِه لك. والشاعرُ مِمَّن يتوعَّدُهُم الملوكُ، ومِمَّن يُوازِنُونَ بينهم؛ لأنه رحَل إليهم، وصاحبَهُم، وتقلَّبَ في نعيمِهم، ثم اعترَف بأنه أفسدَ وأذنبَ، وأن على النعمانِ أن يَصبرَ على ذلك، ويُسامحَه، ويَقبلَ عذرَه، وإلا فلن يجدَ له صديقًا ولا أخًا يُصاحِبُه؛ إذ لا يخلو الإنسانُ مِن أن تكونَ فيه خصلةٌ غيرُ مُرْضِيَةٍ: **(أَيُّ الرِّجَالِ المُهَذَّبُ؟)**. ثم ختَم قصيدتَه بأنه عبدٌ، وأن النعمانَ سيِّدُهُ!!، وأنَّ النعمانَ إنْ لم يَقْبَلْ عُذْرَهُ كانَ ظالِمًا لهُ، والنابغةُ على كلِّ حالٍ سيتحمَّلُ تحمُّلَ العبدِ ظُلْمَ سيِّدِه!!، ثم طلَب منه الرُّجُوعَ إلى الرِّضا والعفوِ؛ وأن مِثْلَه يفعلُ ذلك؛ لما فيه مِن الكرمِ[٢].

١ديوان النابغة الذبياني، ص:٧٢-٧٤.

٢اهتديتُ في كلامي الموجز جدًّا عن القصيدة بشرحها في الديوان؛ بتحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، ص:٧٢-٧٤.

فأيْنَ النابغةُ الشَّاعرُ العبدُ مِن حسَّانٍ الشاعرِ المَلِكِ في نفسِه، وابنِ الملوكِ؟!. فغسَّانٌ الذين ذكرهم حسَّانٌ في البيت الثامن والعشرين: "هم أبناءُ عمومةِ الخزرجِ الذين منهم الشاعرُ حسَّانٌ، وهم ملوكُ الشَّامِ"(١). ففي حسَّانٍ رُوحُ المُلُوكِ وطبعُهُم وحميَّتُهُم ... إلخ؛ فهل النابغةُ تلقَّى قصيدةَ حسَّانٍ؛ وقد أثارَتْ في نفسِه ما أثارَتْهُ مِمَّا ذكرْتُه ومِن غيرِه؛ سواءٌ أقصدَه حسَّانٌ في قصيدتِهِ؛ حينَ ذهَب إليه في سوقِ عكاظ؛ ليُسْمِعَه إيَّاها، أو لم يقصِدْهُ؟، لا أستطيعُ أنْ أقطَعَ بأنَّ حسَّانًا قصدَه، ولم أقْطَعْ بأن النابغةَ تلقَّى القصيدةَ على هذا الحالِ في بدايةِ الأمرِ، لكنَّ ذَهابَ حسَّانٍ إلى النابغةِ في سُوقِ عُكاظ؛ وهو يعلمُ أن الحكومةَ الشعريةَ في هذا السُّوقِ المشهورِ عندَ العربِ للشاعرِ النابغةِ الذبياني: يَسْنِدُ هذا الاحتمالَ، ويُدعِّمُه، ويقوِّيه، ويُؤنِسُ به، ولا شكَّ – حينئذٍ – أن مِثْلَ هذه المعاني في القصيدةِ أوجعتِ النابغةَ، وغاظَتْهُ، وآلَمَتْهُ؛ وهُوَ يتلقَّى هذه القصيدةَ، فغَارَ مِن حسَّانٍ، وحسَدَه، ولم يُنْصِفْه؛ بأنْ فتَّشَ عن زَلَّةٍ لهُ في القصيدةِ، فاسْتَنَد إلى مقاييسِ الفخرِ العامَّةِ عندَ العربِ، فقالَ ما قالَ، وغالَط في حقيقةٍ تاريخيَّةٍ. ولا يلزمُ مِن كونِ العربِ وضَعَتْ للنابغة قبَّةً حمراءَ مِن أدَم أنَّ النابغةَ أشعرُ العربِ مطلقًا على الأَقلِّ في ذلكَ الوقتِ. وفي نُورِ ما سبَق مِن بيانِ حالِ النابغةِ؛ وقد تلقَّى قصيدةَ حسَّانٍ؛ فأوْجَعَه منها ما أوجَعَهُ: أذهبُ إلى أنَّ المآخِذَ التي أُخِذَتْ على حسَّانٍ في بيتَيْهِ إنما هيَ للنَّابغةِ، أو معظمُها لهُ؛ على أقلِّ تقديرٍ؛ فلهذا قلتُ في العنوانِ: (قراءة في نقد النابغة الذبياني ...)؛ ولم أعْتَدَّ بنَسَبِ بعضِ جهاتِ النقدِ إلى الخَنْسَاءِ.

***

١قراءة في الأدب القديم، ص:١٠٧. بتصرف يسير.

الْمَبْحَثُ الْأَوَّلُ:

قِرَاءَةٌ فِي نَقْدِ قَوْلِ حَسَّانٍ: (وَلَدْنَا بَنِي الْعَنْقَاءِ ...)إلخ البيت:

في قولِه: **(وقال: فخرتَ بمَن ولدْتَ؛ لأنه قال: (ولدنا بني العنقاء وابني محرّق)، فترك الفخرَ بآبائه، وفخَر بمَن ولَد نساؤُه}**: نوعُ تفصيلٍ لقولِه على بعضِ الرواياتِ الأخرى: **(وفخرتَ بمَن ولدْتَ، ولم تفخَرْ بمَن ولدَكَ)**. والنابغةُ غالَطَ الحقيقةَ التاريخيةَ هنا؛ لا لأنهُ يَجْهَلُهَا؛ وإنما لحَسَدِه حسَّانًا؛ كما سبَق بيانُه. واستنَدَ في هذه المُغالطةِ على ظاهرِ لفظِ: (وَلَدْنَا)، ولفظِ: (ابْنَمَا)[1]. وترَك التأويلَ الشعريَّ السياقيَّ، أي: الذي يناسبُ قصيدةَ حسَّانٍ وسياقَهَا.

تأويلٌ أوَّلٌ:

فإذا رجَعْنَا إلى سياقِ سباقِ بيتِ الإشكالِ وجَدْنا حديثًا عن فتيةِ قومِ حسَّانٍ، وأنه يفخرُ بهم في سياقِ الحربِ، قال: **(مَتَى مَا تَزِنَّا مِنْ مَعَدٍّ بِعُصْبَةٍ * وغَسَّانَ نَمْنَعْ حَوْضَنَا أنْ يُهَدَّمَا * بِكُلِّ فَتًى عَارِي الأَشَاجِعِ لَاحَهُ * قِرَاعُ الكُمَاةِ يَرْشَحُ الْمِسْكَ وَالدَّمَا * إذا اسْتَدْبَرَتْنَا الشَّمْسُ دَرَّتْ مُتُونَنَا * كَأَنَّ عُرُوقَ الْجَوْفِ يَنْضَحْنَ عَنْدَمَا)**، فهم الذين يَمْنَعُونَ الحَوْضَ أن يُهدَّم، فقولُه: **(بِكُلِّ فَتًى)**: متعلقٌ بالفعلِ: **(نَمْنَعْ)**، فالمُحَدَّثُ عنه في هذا السياقِ هم هؤلاءِ الفِتْيَةُ، ثم قال الشاعرُ: **(وَلَدْنَا بَنِي الْعَنْقَاءِ وَابْنَي مُحَرِّقٍ * فَأَكْرِمْ بِنَا خَالًا، وأَكْرِمْ بِنَا ابْنَمَا)**[2]. فكانَ غرضُه في نُورِ سياقِ السِّباقِ أنْ يقولَ: (ولدنا **فتيانًا أو فتيةً مِثْلَ** بني العنقاء وابني محرِّق)، **فحذفَ المُشَبَّهَ: (فتيانًا أو فتيةً)**؛ لأنه معلومٌ مِن السياقِ،

---

١ أي: ابن أمّ، أو ابْنًا، والميمُ في: (ابنما) زائدةٌ. ينظر: الديوان بتحقيق: عبد الله سنده، ص:٢٣٨. والموشح – ص:٦٩. – هامش رقم: (١٨).

٢ وترتيبُ هذه الأبياتِ الأربعةِ: (متى ما تزِنَّا ... – بكلِّ فَتًى ... – إذا اسْتَدْبَرَتْنا ... – ولدْنَا بني العنقاء ...): واحدٌ في النسخِ الثلاثِ للديوانِ التي وقفتُ عليها، وهوَ نَفْسُ ترتيبِهِنَّ في سياقِ ذِكْرِ الشيخِ أبي موسى للقصيدةِ.

ولا داعِيَ لذِكْرِه، فالحديثُ إنما هو عنهُ، وكلمةُ: **(وَلَدْنَا)** أشْبَهُ بالفِتْيَانِ أو الفِتْيَةِ، والمُشَبَّهُ الفِتْيانُ أو الفِتْيةُ: أشْبَهُ بـ: **(وَلَدْنَا)**، فكلمةُ: **(وَلَدْنَا)** تستدعِيه بقوّةٍ. **وحذفَ أداةَ التشبيهِ التي أُقَدِّرُهَا بـ: (مِثْل)**؛ إبلاغًا في إثباتِ الشَّبَهِ بينَ الطرفيْنِ، كأنهما شيءٌ واحدٌ، أو كالشيءِ الواحدِ، وقد زادَ في هذا الإبلاغِ حذفُ المُشَبَّهِ حتَّى كأنَّ الطرفيْنِ مُتَّحِدَانِ الاتِّحادَ الذي في الاستعارةِ، وحتَّى تَتَوَهَّمَ أنَّ الكلامِ على المجازِ بالاستعارةِ، وحتَّى قال مَن أخَذَ بظاهرِ الكلامِ: **(وفخرتَ بمَن ولدتَ، ولم تفخر بمَن ولدك)!!**. وسياقُ الفخرِ –؛ مِن حيثُ هو فخرٌ، ومِن حيثُ هوَ في القصيدةِ فخرُ سادةٍ، أشرافٍ، ملوكٍ أو كالملوكِ –: هو الذي أسَّسْتُ عليهِ قولي: **(أداةَ التشبيهِ التي أُقَدِّرُهَا بـ: "مِثْل")**؛ لِمَا فيها مِن معنى الاشتراكِ في الجنسِ والصفةِ[1]. فالمِثْلِيَّةُ هنا تامَّةٌ؛ لأنها في الجنسِ بما له مِن صفاتٍ يدلُّ عليها سياقُ الكلامِ، حتى كأنَّ الطرفيْنِ شيءٌ واحدٌ، أو كالشيءِ الواحدِ، فليْسَتِ الصفاتُ الداخلةُ في التشبيهِ هنا كلَّ الصفاتِ، وإنما التي يَسْتَدْعِيها سياقُ الكلامِ في القصيدةِ، فحَمْلُ: (مِثْل) على هذا الوجهِ الذي هوَ أقوى الأَوْجُهِ التي يَصِحُّ الحَمْلُ عليها: هو الأبلغُ في نُورِ السياقِ الذي ذكَرْتُ.

---

١ قال سيبويهِ – رحمه الله تعالى –: "ومِن النعتِ: مررتُ برجلٍ مِثْلِكَ، فـ: مِثْلِكَ: ١– نعتٌ على أنكَ قلتَ: هو رجلٌ كما أنكَ رجلٌ. ٢– ويكونُ نعتًا أيضًا على أنه لم يَزِدْ عليكَ، ولم ينقُصْ عنكَ في شيءٍ مِن الأمورِ. ٣– ومِثْلُه: مررتُ برجلٍ مِثْلِكَ، أي: صُورتُه شبيهةٌ بصُورتِكَ". الكتاب ٤٢٣/١. قال الدكتور محمود موسى حمدان: "فالوجهُ الأولُ: الاتفاقُ في الجنسِ. والثاني: الدلالةُ على المساواةِ. والثالثُ: الدلالةُ على المُشابَهةِ في الصُّورةِ المحسوسةِ". انتهى مِن: أدوات التشبيه دلالاتها واستعمالاتها في القرآن الكريم، ص:٢٣. وكتابُ شيخِنا الدكتور محمود حمدان هو الذي دلَّني على كلمةِ سيبويهِ، ولَكَم انتفعتُ بهذا الكتابِ في رسالتي الماجستير، فرحمه الله رحمة واسعة، وجزاه عن العلم وأهله خير الجزاء.

وعلى هذا التخريجِ يكونُ حسَّانٌ قد افتخرَ بالفرعِ وافتخَر بالأصْل مَعًا في بيتٍ واحدٍ؛ على وجهٍ أعلى وأبلغَ مِمَّا في البيتِ الذي ذكَرَهُ المرزبانيُّ: **(وعبدَ العزيزِ قد ولَدْنا ومُصْعَبًا * وكَلْبٌ أَبٌ للصَّالِحِينَ وَلُودُ)**؛ وهو وجهُ التَّشْبيهِ بصفتِه المذكورةِ. وقد افتخَرَ بالأصلِ في الأبياتِ التي تحدَّثَ فيها عن قومِه، وافتخَر بنفسِه أيضًا، وهو بالنسبةِ إلى آبائِه فرعٌ.

وقولُه: (وعبدَ العزيزِ قد ولَدْنا ومُصْعَبًا): افتخارٌ بالفرعِ، وقولُه: (وكَلْبٌ أَبٌ للصَّالِحِينَ وَلُودُ): افتخارٌ بالأصلِ، وهوَ موضِعُ الاحتراسِ؛ لأنه جاءَ مُتأخِّرًا عَنْ عبارةِ الافتخارِ بالفرعِ. ويُفْهَمُ مِن مجموعِ البيتِ تشبيهٌ ضمنيٌّ طَرَفاهُ الفرعُ والأصلُ، والمُغايَرةُ بينَ قِسْمَي المعنى في البيتِ بالفعليَّة في الأوَّلِ والاسميَّةِ في الثاني: حسَّنَتْ الاحتراسِ، وأشْعَرَتْ بإرادةِ الفَرْقِ بينهما أصلًا وفرعًا، وعُلُوِّ الفخرِ بالأصلِ على الفخرِ بالفرعِ. وفي قولِه: **(وجمع ذلك في بيتٍ واحدٍ، فأحْسَنَ، وأجَادَ)**: إشارةٌ إلى أنَّ الإيجازَ في الإبانةِ – وهو هنا إيجازُ القِصَرِ – مِن مظاهرِ الحُسْنِ والجودةِ، وقد تحقَّقَ ذلكَ في بيتِ حسَّانٍ ومعَه إيجازُ الحذفِ أيضًا. ويُفْهَمُ مِن مجموعِ قولِه: (وقد احترَس ... فأحْسَنَ وأجَادَ): أنَّ الاقتصارَ على الفخرِ بالفرعِ لا يجوزُ، ويجوزُ الاقتصارُ على الفخرِ بالأصلِ، وهذا مذهبُ نُقَّادِ الشِّعْرِ. وقولُه: **(وفخرتَ بمَن ولدتَ، ولم تفخر بمَن ولدك)**: قد يكونُ فيهِ إشارةٌ إلى معنَى أنهُ لا يجوزُ الفخرُ بالفرعِ في كلامٍ وسياقٍ واحدٍ ليس فيهِ فخرٌ بالأصلِ؛ وحَسَّانٌ قد جَمَعَ بينَ الاثنينِ في بيتِه: **(وَلَدْنَا بَنِي الْعَنْقَاءِ وَابْنَي مُحَرِّقٍ ...)**؛ لأنَّ فخْرَه بالفرعِ الأبناءِ قد ربَطَه بالفخرِ بالأصلِ الآباءِ. وفي قولِ ابنِ الرُّومِيِّ:

قَالُوا: أَبُو الصَّقْرِ مِنْ شَيْبَانَ، قُلتُ لَهُم: كَلَّا؛ لَعَمْري، ولَكِنْ منهُ شَيْبَانُ
وكَمْ أبٍ قد عَلا بابْنٍ ذُرَا شَرَفٍ كما عَلا بِرَسُولِ اللهِ عَدْنانُ
تَسْمُو الرِّجالُ بآباءٍ، وآونةً تَسْمُو الرِّجالُ بأبناءٍ، وتَزْدَانُ[1].

١ديوان ابن الرومي، مِن قصيدةٍ له طويلةٍ؛ في مدحِ إسماعيل بن بلبل ٣/٣٧٣. وله بعضُ قصائدَ أخرى في مدحِه؛ هيَ جديرةٌ بجمعِها وتحليلِها موضوعًا مستقِلًّا.

تنبيهٌ على هذا المذهبِ، ولَفْتٌ إلى إمكانِ الفخرِ بالفرعِ؛ على الجملةِ.

وفي نُورِ ما سبَق لا وجهَ لقولِ المرزبانيِّ: (فأما قولُه: (فخرت بمن ولدت، ولم تفخر بمن ولدك): فلا عُذْرَ عندي لحسَّان فيهِ على مذهبِ نُقَّادِ الشِّعْرِ)؛ لأنَّ حسَّانًا لم يُخالِفْ هذا المَذْهَبَ الذي العملُ به في الشِّعْرِ حَتْمٌ لازِمٌ عندَهُ. ومذهبُ نقَّادِ الشِّعْرِ أنَّ الأصلَ الافتخارُ بالأصلِ؛ لأنَّ هذا الشَّائعُ المُسْتفِيضُ في شِعْرِ العَرَبِ، لكنَّ بعضَ هؤلاءِ النَّقَدَةِ أضافَ إلى هذا المذهبِ ما يُخصِّصُه؛ فقد يُقَالُ: إنه يلزمُ مِن الفخرِ بالفرعِ الفخرُ بالأصلِ؛ لأنَّ الفخرَ بالأبناءِ إنما هو فخرٌ بالآباءِ الذين أنتجُوا الأبناءَ، لكنَّ الفخرَ بالأصلِ لا يلزمُ منه الفخرُ بالفرعِ، فقد يَشِذُّ الفرعُ عن الأصلِ، فكانَ الفخرُ بالفرعِ مِن آياتِ جودةِ غرضِ الفخرِ بالآباءِ؛ لأنه مِن تمامِه وكمالِه؛ قال قدامةُ بنُ جعفرَ تعليقًا على أبياتٍ لأيمن بنِ خريم، قالَها في بشرِ بنِ مروانَ: "فما في هذه الأبياتِ شيءٌ يتعلَّقُ بالمدحِ الحقيقيِّ؛ **<u>وذلك أنَّ كثيرًا مِن الناس لا يكونونَ كآبائِهم في الفَضْلِ، فلم يَصِفْ هذا الشاعرُ غيرَ الآباءِ، ولم يَصِف الممدوحَ بفضيلةٍ في نفسِه أصلًا</u>**، وذكَر بعد ذلك بناءَه قُبَّةً، ثم وصفَ القُبَّةَ بأنها مِن الذهبِ والفضةِ، وهذا أيضًا ليس مِن المدح؛ لأنَّ في الملكِ والثّروةِ معَ الصَّنْعةِ والفَهْمِ ما يُمكِنُ معَه بناءُ القِباب الحسَنةِ، واتخاذُ كلِّ آلةٍ فائقةٍ، ولكِنْ ليسَ ذلكَ مدْحًا يُعْتَدُّ به، ولا جاريًا على حقِّه"[1].

فقدامةُ يُقَرِّرُ أنَّ الفخرَ بالأصلِ – والفخرُ مِن مجالاتِ المدحِ الذي هو أعَمُّ منهُ – لا يكفي في سياقِ الفخرِ والمدحِ؛ وإنما لا بُدَّ مِن مدحِ الفرعِ، والفَخْرِ به؛ ليكونَ المدحُ والفخرُ تامًّا؛ فلا يُتوَهَّمُ ضعفُ الفرعِ وبُعْدُه عنِ الأصلِ، وحسَّانٌ مدحَ قومَه، وافتخَر بأصلِه، وافتخَر بنفسِه ومدحَها على جهةِ الاستقلالِ، وجمعَ

١نقد الشعر، تأليف: قدامة بن جعفر بن قدامة بن زياد البغدادي، أبي الفرج: (المتوفى:٣٣٧هـ)، نشر: مطبعة الجوائب – قسطنطينية، ٧٢/١.

بينَ الفخرِ بالأصلِ والفرعِ في بيتِه المذكورِ؛ قال ابنُ رشيقٍ: "وقد أنكَر قُدَامةُ أن يُمدَحَ الإنسانُ بآبائِه دونَ أن يكونَ ممدوحًا بنفسِه؛ لأن كثيرًا مِن الناسِ لا يكونونَ كآبائِهم، **والذي ذهَب إليه حَسَنٌ**"[1].

والحاصلُ: (١) أنه لا يجوزُ الاقتِصَارُ في قصيدةٍ على مدحِ الفرعِ، والافتخارِ به؛ لأنه يكونُ ضعيفًا، وحسَّانٌ لو كانَ في بيتِه: (ولَدْنا بني العنقاءِ ...)إلخ: مفتخرًا بالفرعِ فقط؛ بِناءً على الظاهرِ مِن غيرِ تأمُّلٍ وتحقيقٍ وتأويلٍ: لَمَا عِيبَ بذلكَ؛ لأنه قد سبَق له أنِ افتخَر بالأصلِ، ومدحَه، وفعَل ذلكَ معَ نفسِه مُستقِلًّا. (٢) وأنَّ الأفضلَ والأحْسَنَ والأكْمَلَ أنْ لا يُقْتَصَرَ فيها على الافتخارِ بالأصلِ ومدحِه؛ لأنه يكونُ ناقصًا؛ فيُضَافُ إليه ما يتعلَّقُ بالفرعِ أيضًا.

<u>تأويلٌ ثانٍ</u>:

ويقولُ الشيخُ أبو موسى في بيتِ حسَّانٍ: **(وَلَدْنَا بَنِي الْعَنْقَاءِ وَابْنَي مُحَرِّقٍ * فَأَكْرِمْ بِنَا خَالًا، وأَكْرِمْ بِنَا ابْنَمَا)**: "... **(وَلَدْنَا بَنِي الْعَنْقَاءِ وَابْنَي مُحَرِّقٍ)**، وهو أوَّلُ مَن عاقَبَ بالنارِ، وهو الحارثُ بنُ عمرو مُزيقاء، والعنقاءُ أخوه ثعلبةُ بنُ عمرو مزيقاء بن عامر بن ماء السماء، وهو في ترتيبِ نَسَبِ حسَّانٍ الجَدُّ الرابعَ عشَرَ، وثعلبةُ بنُ عمروٍ هذا هو جَدُّ الخزرجِ، يعني الخزرجَ بن حارثة بن ثعلبة، وماء السماء بن حارثة الغطريف بن امرئ القيس البطريق بن ثعلبة البهلول، وبين البهلول وكَهْلان بن سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان بن سام بن نوح – عليه السلام –: سِتَّةُ آباءٍ، هذا ما في نسَبِ حسَّانٍ، **والغريبُ أنه يقولُ: (وَلَدْنَا بَنِي الْعَنْقَاءِ وَابْنَي مُحَرِّقٍ)، ولم يقُل: (وَلَدَنَا بنو العنقاء وابنا محرق)، وكأنه يتكلَّمُ بلسانِ جدِّهِ الأسبقِ للخزرجِ، والذي وَلَدَ بني العنقاءِ وابني محرِّق هو عمرو مزيقاء، وحسَّانٌ يتكلَّمُ بلسانِه. ولا أجِدُ وجهًا لِمَا ترويه كتبُ الأدبِ مِن**

١العمدة في صناعة الشعر ونقده ٨٢٦/١.

قولِ النابغةِ لحسَّانٍ في نقدِه لشعرِه: (فخرتَ بمَن ولدتَّ، ولم تفخَرْ بمَن ولدَكَ)؛ لأن حسَّانًا لم يلِد بني العنقاء، ولا ابني محرِّق، وإنما يعرفُ مَن يقرأُ التاريخَ أنَّ المُحرِّقَ هو الحارثُ بنُ عمرو مزيقاء، والعنقاء أخوه ثعلبة، ولا يُتَصَوَّرُ أنَّ النابغةَ يجهلُ ذلكَ؛ لأنَّ العربَ لا يجهلونَ أنسابَهُم، ولا يَزَالُ اسْمُ قحطانَ بنِ سامِ بنِ نوحٍ يُكتَبُ في كشوفِ تلاميذ المدارسِ الذين يَنتهي نَسَبُهُم بكلمةِ: (قحطانيّ)، ثم إنَّ النابغةَ عاشَ معَ المَنَاذِرةِ والغساسنةِ، وهُم مِن عربِ الجنوبِ الذينَ منهُم حَسَّانٌ، ولا يجوزُ أن يَجهل أنسابَهم؛ وهوَ يذكُرُهُم، ويذكُرُ آباءَهُم، ووقائعَهُم، وعِلْمُ الأنسابِ مِن العلومِ التي لا يجوزُ لشاعرٍ أنْ يَتساهَلَ فيه، وهوَ في الشِّعْرِ بالِغُ الدِّقَّةِ والوَعْيِ والتَّشابُكِ"[1].

المُغالطةُ النابغيَّةُ ظاهرةٌ في كلامِ الشيخِ. وإنما قالَ: **(والغريبُ أن يقولُ ...)**؛ لأنَّ ذلكَ خلافُ الظاهرِ؛ فظاهرُ القولِ: (وَلَدْنَا): أنْ لا يقولَ: (بني العنقاء وابني محرق).

وقولُه: **(وكأنه يتكلَّمُ بلسانِ جدِّهِ الأسبقِ للخزرجِ)**: هو التأويلُ الشعريُّ السياقيُّ؛ فحسَّانٌ في قصيدتِهِ يتكلَّمُ بلسانِ قومِه كثيرًا، وتكلُّمُه بلسانِ جدِّه هو عينُ الفخرِ المصحوبِ بالإباءِ والكبرياءِ والمُلُوكِيَّةِ والعِزَّةِ العَلِيَّةِ؛ ولذلك كثُر التعبيرُ بضميرِ الجَمْعِ في القصيدةِ، مِثْلُ: (وأبقى لنا – ألسنا نرد – ونقلب مران – أبوه أبونا – وإنا لنقري – لنا حاضِرٌ – متى ما تزنا – نمنع حوضنا – استدبرتنا – درت متوننا – نسود). والتنوعُ بينَ الإفرادِ والجمعِ في القصيدةِ مِن مظاهرِ جودتِها، وهو يحتاجُ إلى وقفاتٍ وتأملاتٍ.

وقولُه: (ولا أجِدُ وجهًا لِمَا ترويه كتب الأدب ... إلخ): فيه أحدُ احتماليْنِ:

١قراءة في الأدب القديم، ص:١١١-١١٢.

١- إما أنَّ هذهِ الروايةَ غيرُ صحيحةٍ، أي: أنها مُلفَّقَةٌ. ٢- وإمَّا أنَّ النابغةَ غالَطَ الحقَّ، وعدَل عنه؛ لما ذكرتُ مِن قبلُ. والاحتمالُ الأولُ بعيدٌ؛ لأن مَن رواها مِن أهلِ العلمِ ثقاتٌ ينقلُ عنهم أهلُ العلمِ في كلِّ زمانٍ، كالمرزبانيِّ، وابنِ رشيقٍ، وغيرِهما، وقد تعدَّدَتْ في ذلكَ الرواياتُ، وتعدُّدُ الرواياتِ يؤكِّدُ صحةَ حدوثِ القصةِ مِن وجهٍ، وإذا رفَضْنَا منهُم هذهِ القصةَ فلْنَرْفُضْ كلَّ ما حكَوْهُ وأوْرَدُوهُ مِن هذا البابِ؛ أفنَقْبَلُ بَعْضًا، ونَرْفُضُ آخَرَ؟!. فلا يَبْقَى إلَّا الاحتمالُ الثَّاني، وهوَ ما أقولُ به.

***

الْمَبْحَثُ الثَّانِي:

قِرَاءَةُ فِي نَقْدِ تَعْبِيرِ حَسَّانٍ بِالْجَفْنَاتِ، وَالْغُرِّ، واللَّمَعَانِ: (يَلْمَعْنَ)، وَالضُّحَى، وَالْأَسْيَافِ، والقَطْرِ: (يَقْطُرْنَ)، و: (نَجْدَةٍ)، و: (دَمَا):

وهذهِ القراءةُ ستَسْلُكُ في (أوَّلِها) مَسْلَكَ الإجمالِ والتَّفْصِيلِ؛ لأنها تقومُ على مَسْلَكِ الاستدلالِ؛ مُقدِّمةً: (المُسْتدَلَّ عليهِ) على: (الدليلِ)؛ لطُولِ الكلامِ في الدليلِ؛ فيكونُ أشْبَهَ بالتفصيلِ مِن بَعْدِ الإجمالِ. وفي: (مقطعِهَا) مَسْلَكَ الإجمالِ والتَّعْويلِ على أوَّلِها.

وأُبادِرُ إلى التنبيهِ على أنَّ الإشكالَ البيانيَّ في وضعِ جمعِ القلةِ موضعَ جمعِ الكثرةِ: يَقْوَى؛ بوجودِ جمعِ كثرةٍ للمفردِ: (جَفْنَة)، و: (سَيْف)، ولو لم يُوجَدْ لهذيْنِ المفردَيْنِ صيغةُ كثرةٍ لربما اعْتُذِر بذلك لحسَّانٍ؛ معَ أنَّ التعليلَ بعدمِ وجودِ صيغةِ كثرةٍ للتعبيرِ بالقِلَّةِ في موضعِها؛ حيثُ تكونُ الكثرةُ فيه مُقْتَضَى حالٍ: صارِفٌ عن كشفِ الحِكْمةِ في استعمالِ صيغةِ القِلَّةِ؛ يقولُ العلَّامةُ ابنُ هشامٍ: "وقد يُسْتَغْنَى ببعضِ أبنيةِ القِلَّةِ عن بناءِ الكثرةِ؛ كـ: أَرْجُلٍ، وأَعْنَاقٍ، وأَفْئِدَةٍ، وقد يُعْكَسُ؛ كـ: رِجَالٍ، وقُلُوبٍ، وصِرْدَانٍ"[1]. وقال الزركشيُّ: "ومِن المُشْكِلِ قولُه – تعالى –: ﴿ فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً ﴾[البقرة:٢٤٥].؛ فإن: {أَضْعَافًا} جَمْعُ قِلَّةٍ، فكيف جاءَ بَعْدَهُ كثرةٌ؟، وهذا منه. تنبيهانِ: الأولُ: **إنما يُسألُ عن حِكْمةِ ذلك حيثُ كان له جَمْعُ كثرةٍ، فإن لم يكن فلا**، كقوله: ﴿ أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ ﴾[البقرة:١٨٤].؛ فإن: {أَيَّامًا} أفعالٌ مع أنها ثلاثونَ، لكنْ ليس لليوم جَمْعٌ غيرُه، ومِن ثَمَّ أفْرَدَ السمعَ وجَمَعَ الأبصارَ في قوله: ﴿ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ ﴾[البقرة:٧].؛ لأن فَعْلًا ساكنَ العينِ صحيحَها لا يُجْمَعُ على:

١أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك ٤/٢٦٤.

{أفعال} غالبا، وليس له جَمْعُ تكسيرٍ، فلَمَّا كان كذلك اكتفَى بدلالةِ الجِنْسِ على الجَمْعِ. وجعل بعضُهم مِن هذا: {أنفسكم} على كثرتِها في القرآن، وليس كذلك؛ فقد جاء: ﴿ وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ ۝٧ ﴾[التكوير:٧]. وحِكْمَتُهُ هنا ظاهرةٌ؛ لأن المرادَ استيعابُ جميعِ الخَلْقِ في المَحْشَرِ"[١]. والتعبيرُ بصيغَتَي القِلَّةِ: (الجفنات)، و: (الأسياف): هو مقتَضَى الحالِ في القصيدةِ؛ وإنْ لم يكُن لهما صيغةُ كثرةٍ: (الجِفَان)، و: (السُّيُوف)؛ فالحقُّ "أنه إذا كان جَمْعُ القِلَّةِ يُوضَعُ موضِعَ جَمْعِ الكثرةِ في حالةِ وجودِ جَمْعِ كثرةٍ له؛ لغرضٍ سياقيٍّ: فإن وقوعَ جَمْعِ القِلَّةِ موقِعَ جَمْعِ الكثرةِ يكونُ لسببٍ بلاغيٍّ سياقيٍّ خاصٍّ مع السببِ العامِّ مِن كونِه لا جَمْعَ كثرةٍ له"[٢]. والتعبيرُ عن قَصْدِ السِّياقِ بغيرِ جمعِ القِلَّةِ الذي لا جمعَ كثرةٍ لهُ – بأنْ يُعبَّرَ بصُورةٍ مِن صُوَرِ المعاني ليس جمعُ القِلَّةِ هذا مِن عناصِرِه – كانَ في إمكانِ الشَّاعرِ، فلا بُدَّ مِن وجودِ داعٍ بلاغيٍّ لصيغةِ القِلَّةِ المُسْتَعْمَلةِ في السياقِ.

فأمَّا: (المُسْتَدَلُّ عليه): فهوَ:

أنَّ قولَه: (الجفناتُ): صيغةُ قِلَّةٍ؛ وقَعَتْ في موقِعِ صيغةِ الكثرةِ: (الجِفَانُ)؛ وكذلكَ قولُه: (وأسيافُنا)؛ إذِ الأصلُ: (وسُيُوفُنا)؛ بِنَاءً على ظاهرِ مقامِ الفخرِ والمدحِ[٣]. وهذ العدولُ طريقةٌ عربيَّةٌ جَرَى عليها القرآنُ الكريمُ في غيرِ قليلٍ مِن

---

١ البرهان في علوم القرآن ٣/٣٥٧-٣٥٨.

٢ البلاغة القرآنية في تفسير البقاعي – الإفراد والتثنية والجمع أنموذجا: دراسة موازنة – معجم بلاغي، تأليف الدكتور: طه السيد السيسي ١/١٢٧.

٣ وتأويلُ جمعِ القِلَّةِ بجمعِ الكثرةِ هُنَا، وأنَّ جمعَ القِلَّةِ وُضِعَ موضِعَ جمعِ الكثرةِ: قال به النُّحاةُ. وبعضُهم جعَل مُجرَّدَ تبادُلِ موقِعِ الصيغتيْنِ دليلًا للقولِ بأنَّ خبرَ هذا النقدِ مصنوعٌ، ولعلَّ مرادَه أنَّ هذا التَّبادُلَ لا يخفَى على مِثْلِ العربيِّ عمومًا، والنابغةِ خصوصًا، فالنابغةُ عندَه لم يقُل هذا، وإنْ قالَه فليس معَه حقٌّ فيما ذهبَ إليه، ولم يتجاوزِ النحاةُ هذا كلَّه إلى السؤالِ: ما سِرُّ وقوعِ: (الجفنات)، و: (الأسياف) موقعَ: (الجفان)، و: (السيوف)؟. ينظر: =

المواضِعِ فيه[1]. وأنَّ قولَهُ: (يَقْطُرْنَ) أبلغُ مِن: (يَجْرِينَ) الذي هوَ ظاهرُ هذا المقامِ أيضًا.

=

خزانة الأدب ٨/١٠٧-١٠٨. وبهذا التأويلِ ردَّ أسامةُ بنُ مُنقذ على مَن عابَ حسَّانًا بالتعبيرِ بصيغَتَي القِلَّةِ؛ فقال: "وأمَّا أسياف وجفنات فإنه قد يَضَعُ القليلَ موضِعَ الكثيرَ ...". انتهى مِن: البديع في نقد الشعر، ص:١٤٦. وينظر: خزانة الأدب ٨/١١٤. وأنوار الربيع في أنواع البديع، لابن معصوم المدني ٤/٢٠٩. ولم يتعرَّضْ للسؤالِ السابقِ ذكرُه أيضًا؛ إذ هل يخلو عدولٌ مِن دلالةٍ؟، أم أنَّ صيغةَ القِلَّةِ تُؤدِّي ما تُؤدِّيهِ صيغةُ الكثرةِ؟. وكذلك انتصَر ابنُ الأثيرِ لحسَّانٍ بأنَّ استعمالَ صيغةِ القِلَّةِ في موضِعِ صيغةِ الكثرةِ لا يعني قِلَّةَ معنى الصيغةِ، بل هذا مِن تبادُلِ المَوْقِعِ بينَ الصيغِ، ولم يتعرَّضْ لنَفْسِ السؤالِ؛ لكنه لفَت إلى شيءٍ مُهِمٍّ في قولِه تعليقًا على موافقةِ الصُّولي على تعييبِ حسَّانٍ بتعبيرِه بصيغَتَي القِلَّةِ: "وقالَ: إنه جمَع: (الجفنات والأسياف) جمْعَ قلَّةٍ؛ وهوَ في مقامِ فخرٍ، وهذا مِمَّا يَحُطُّ مِن المعنى، ويَضَعُ منه، وقد ذهَب إلى هذا غيرُه أيضًا، وليس بشيءٍ؛ لأنَّ الغرضَ إنما هوَ الجَمْعُ؛ سواءٌ أكانَ جمْعَ قِلَّةٍ أم جمْعَ كثرةٍ". انتهى مِن: المثل السائر ٣/١٨٦. فأفْهَمَ قولُه: (لأنَّ الغرضَ إنما هوَ الجَمْعُ؛ سواءٌ أكانَ جمْعَ قِلَّةٍ أم جمْعَ كثرةٍ): أنَّ صيغةَ الجمعِ تدلُّ على أصلِ معنى الكثرةِ، وهذا مناسبٌ لمقامِ الفخرِ على الجملةِ، ويفوتُ لو عُبِّر في موضعِه بالمفردِ، لكنَّ حسَّانًا لم يفعَل. وأنَّ صيغةَ الجمعِ يُنْظَرُ إليها مِن جهةِ الجمعيَّةِ، وهذا يعني أنها يُنْظَرُ إليها مِن جهةِ القِلَّةِ أو الكثرةِ؛ نعم، هو لم يتعرَّضْ لهذهِ الجهةِ، فلم يكشِف عن السِّرِّ البلاغيِّ وراءَ تعبيرِ حسَّانٍ بجمعِ القِلَّةِ.

١ كالتعبيرِ بالأَنْعُمِ في موضِعِ النِّعَمِ في نُورِ أن نِعَمَه – تعالى – على جميعِ عبادِه البَرِّ والفاجرِ والمؤمنِ والكافرِ – لا تُعدُّ ولا تُحْصَى، بل إن آثارَ نعمةٍ واحدةٍ كذلكَ، وذلك في مِثْلِ قولِه – تعالى –: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾﴾ [النحل:١١٢]. وكالتعبيرِ بـ: قاصرات في موضعِ: قواصرِ في نُورِ أن السياقَ سياقُ امتنانٍ، وهو يتطلَّبُ كثرةَ المُمْتَنِّ بهِ، وذلك في قولِه – تعالى –: ﴿۞ وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ

=

فقولُه: (الأسيافُ): فيه جِهَتانِ للنَّظَرِ البيانيِّ: (١) جهةُ الجمعِ مطلقِ جمعٍ؛ وهو مِن هذه الجهةِ يدلُّ على الكثرةِ والقوةِ والشِّدَّةِ والصَّلابَةِ وما جَرَى في هذا الطريقِ مِن المعنى؛ فهو إذن يُبِينُ عن الشَّجاعَةِ في سياقِ الحربِ؛ دفاعًا عَنْ غيرِهم، ومَعُونَةً وَنُصْرَةً لهُ، ولو عُبِّرَ بالمفردِ: (وَسَيْفُنَا): لفاتَ ذلكَ؛ فيكونُ نَقْصًا في الإبانةِ. (٢) وجهةُ القِلَّةِ؛ وهيَ تُشِيرُ إلى أنهم لَيْسُوا أهلَ قتلٍ ودماءٍ وأشْلاءٍ وغِلٍّ وقَسْوةٍ؛ فهُم لا يَسْتَجِيبُونَ لأوَّلِ نداءٍ للحَرْبِ، ولا يُمْعِنُونَ في القتلِ والذَّبْحِ، بل يُؤْثِرُونَ السِّلْمَ والسَّلامَ أوَّلًا؛ مِن أجلِ استمرارِ الإكرامِ والجُودِ؛ فيكونُ في ذلكَ تحقيقٌ وتوكيدٌ لكونِهم مُلُوكًا كِرَامًا، وسَادَةً أشْرافًا؛ يَرُدُّونَ الكَبْشَ عَنْ طِيَّةِ الهَوَى، ويكونُ الواحدُ منهم في حالةِ اشْتِدَادِ الحربِ؛ لِمَنْعِ حَوْضِهِم أنْ يُهدَّمَ: (يَرْشَحُ المِسْكَ والدَّمَا)؛ فهم في الحروبِ هادِئُوا النَّفْسِ، ثابِتُوها؛ قال البغداديُّ: "وقولُه: (يَرْشَحُ المِسْكَ)إلخ: أرادَ أنهم مُلُوكٌ، فإذا جُرِحَ أحدُهُم سالَ دَمُه برائحةِ المِسْكِ"[(١)]. ولو عُبِّرَ بجمعِ الكثرةِ؛ فقيلَ: (وسيُوفُنا): لأفْهَمَ أنَّ طِبَاعَهُم طِبَاعٌ غليظةٌ؛ ذاتُ قَسْوةٍ قاسِيَةٍ؛ تعشقُ الحروبَ والقتلَ والذَّبْحَ إلى آخِرِ ما تُنْتِجُه

=

أَنْزَابٌ ﴿٥٢﴾﴾[ص:٥٢].؛ تنبيهًا على معنَى التَّمَيُّزِ؛ تحقيقًا لاتِّصافِ القاصِراتِ بالحُسْنِ في المعنى؛ لأنه إذا كانَ الحَسَنُ مِن الأشياءِ قليلًا في الغالبِ فكيفَ إذا كانَ الشيءُ حُسْنًا، وكانَ الحُسْنُ مُضافًا إليه: (هَٰذَا ذِكْرٌ ۗ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ ﴿٤٩﴾)[ص:٤٩].؟. وفي القرآنِ شواهدُ كثيرةٌ. ينظر: تناسب المفردات عند البقاعي في نظم الدرر دراسة بلاغية – رسالة دكتوراة للباحث: طه السيد عبد النبي محمود، مخطوطة بكلية اللغة العربية بالقاهرة – جامعة الأزهر الشريف، ص:٧٢٢، ٧٢٧. وما بعدهما. و: الإعجاز البياني في صيغ الألفاظ: دراسة تحليلية للإفراد والجمع في القرآن، للدكتور: محمد الأمين الخضري، مِن ص: ١٣٧ إلى ص:١٦١.

١خزانة الأدب ١١٧/٨.

الحروبُ المُسْتعِرةُ، وهذا ضِدُّ أحوالِهِم في القصيدةِ التي تدلُّ على أنهم على عَكْسِ ذلكَ، فعبَّرَ حسَّانٌ بصيغةِ القِلَّةِ؛ لمطابقتِها أحوالَهُم تلكَ؛ واحتراسًا مِن إفهامِ ما ليس بحقٍّ ولا صوابٍ؛ فهو غيرُ مُرادٍ، ويُفْهَمُ ذلكَ لو عُبِّرَ بـ: (يَجْرِينَ)، أو: (يسلن)، أو: (يفضن) مكانَ: (يَقْطُرْنَ)؛ على أنَّ الجَرْيَ والسَّيَلانَ والفيَضَانَ أكثرُ مِن القطرِ[١]. وإنما المُتناغِي معَ صيغةِ القِلَّةِ في قولِه: (وأسيافُنا): (أ): (يقطرن)[٢]. وعِلَّةُ أنَّ الجَرْيَ وغيرَه أكثرُ مِن القَطْرِ إنما تُناسِبُ سياقَ الفخرِ والمدحِ على الجُمْلةِ والظَّاهرِ؛ دونَ مُرَاعاةِ خُصُوصِيَّةِ السِّياقِ[٣]. (ب) والتعبيرُ

---

١ قال ابن فارس: "الجيمُ والراءُ والياءُ: أصلٌ واحدٌ؛ وهوَ انْسِيَاحُ الشيءِ؛ يُقال: جَرَى الماءُ يجري جَرْيَةً وجَرْيًا وجَرَيَانًا ... فأمَّا السّفينةُ فهي الجاريةُ، وكذلكَ الشّمسُ، وهوَ القياسُ ...". انتهى مِن: معجم مقاييس اللغة ٤٤٨/١. مادة: (ج ر ي). وقالَ: "والقطرُ: قطرُ الماءِ وغيرِه، وهذا بابٌ ينقاسُ في هذا الموضعِ؛ لأنَّ معناهُ التَّتَابُعُ، ومِن ذلكَ: قِطَارُ الإبِلِ، وتَقَاطَرَ القومُ؛ إذا جاءُوا أرْسَالًا؛ مأخوذٌ مِن قِطَارِ الإبِلِ". انتهى مِن: معجم مقاييس اللغة ١٠٦/٥. مادة: (ق ط ر).

٢ قال أسامة بن منقذ: "وفرَّطَ في قولِه: (يقطرن)؛ وهو قادرٌ على أنْ يقولَ: (يجرين)؛ لأنَّ القَطْرَ قَطْرةٌ بعدَ أُخْرَى". انتهى مِن: البديع في نقد الشعر، ص:١٤٦. وينظر: خزانة الأدب ١١٤/٨. وجاء على لسان الخنساء في أنوار الربيع في أنواع البديع: ٢٠٨/٤.: "وقلتَ: (يقطرن)، ولو قلتَ: (يسلن): كانَ أكثرَ".

٣ ويُحسِّنُ هذا الفَهْمَ موافقةُ التعبيرِ بـ: (يقطرن) للاستعمالِ العربيِّ في هذا المقامِ الجزئيِّ؛ قال قدامةُ: "فأمَّا قولُ النابغةِ أو مَن قال: إنَّ قولَه في السيوفِ: (يجرين) خيرٌ مِن قولِه: (يقطرن)؛ لأنَّ الجرْيَ أكثرُ مِن القطر: فلم يُرِدْ حسَّانٌ الكثرةَ؛ وإنما ذهَب إلى ما يَلْفِظُ به الناسُ، ويَعْتادُونه مِن وصفِ الشجاعِ الباسلِ والبطلِ الفاتكِ بأنْ يقولوا: (سيفُه يَقْطُر دمًا)، ولم يُسمع: (سيفُه يجري دمًا)، ولعلَّه لو قال: (يجرين دمًا) يعدلُ عن المألوفِ المعروفِ؛ مِن وصفِ الشجاعِ النجدِ إلى ما لم تجرِ عادةُ العربِ بوصفِه". انتهى مِن: نقد الشعر، ص:٩٤. وينظر: البديع في نقد الشعر، ص:١٤٦. وخزانة الأدب ١١٤/٨. وقولُه: (مِن وصفِ الشجاعِ النجدِ): يعني: أنَّ الشجاعَ الذي يقاتلُ مِن أجلِ غيرِه يقال في حقِّه: (سيفُه =

بالدَّمِ مفردًا: (دَمَا). فلَوْ عُبِّرَ بـ: (وسيوفُنا): لناسَبَهُ: (يَجْرِينَ)، أو: (يسلن)، أو: (يفضن)، و: (الدِّماءَ)، ولا يُلائمُه: (يَقْطُرن)، و: (الدَّمَا)، وحذفُ همزةِ الدماءِ بناءً على نظمِه مقصورًا: تمكينٌ للتَّعبيرِ بصيغة القِلَّةِ، وبـ: (يقطرن)، وبالمفردِ: (دما)، يُضَافُ إلى ذلكَ صِحَّةُ الوزنِ والقافيةِ[1].

وكذلكَ لـ: (الجفناتُ) نَفْسُ جِهَتَي النَّظَر؛ (١) فالجمعُ يُبِينُ عَنْ قوةِ كرمِهِم، وعظيمِ جُودِهِم؛ لأنَّ فيهِ معنَى الكثرةِ، ولدلالتِهِ على قوَّةِ معناهُ في نَفْسِهِ. ولو عُبِّرَ بالمفردِ؛ فقيل: (لَنَا الجَفْنةُ): لكانَ ضعْفًا في الإبانةِ، وأيُّ ضَعْفٍ هُوَ؟. (٢) والقِلَّةُ تشيرُ إلى معنى التَّمَيُّزِ والتَّفَوُّقِ والشُّهْرَةِ؛ شأنُ كلِّ قليلٍ غريبٍ عجيبٍ نادِرٍ؛ كجُودِ هؤلاءِ، وقَرْيِهِم، وكرَمِهِم؛ لأنَّهُنَّ جفناتُ مَن وهَبُوا حياتَهُم للكرمِ

=

يقطرُ دمًا)؛ فهو لا يحبُّ الدماءَ والقتلَ والذبحَ؛ وإنْ كانَ مُقاتلًا شُجاعًا؛ لأنه إنما يقاتلُ؛ مِن أجلِ نجدةِ غيرِه، والمحافظةِ على بقائِه، الذي يُدافِعُ عن غيرِه مِن الكِرَامِ، والكِرَامُ لا يُكْثِرونَ هذا القتلَ، ولا يتوحَّشُونَ فيهِ، وهذا المعنى في لفظِ قدامةَ – إنْ صحَّ فَهْمُه – جيِّدٌ وبصيرٌ. ونقَل البغداديُّ عن العينيِّ عن ابنِ يسعونَ ما قالَه قدامةُ بإيجازٍ شديدٍ، وزيادةً؛ وهيَ: "... معَ أنَّ: (يقطر) أمدحُ؛ لأنه يدلُّ على مضاءِ السَّيْفِ وسرعةِ خروجِه عن الضَّريبةِ حتَّى لا يكادَ يَعْلَقُ بهِ دَمٌ ". انتهى مِن: خزانة الأدب ٨/١١٥–١١٦. وجاء هذا في أنوار الربيع في أنواع البديع ٤/٢٠٩–٢١٠. وزاد فيه على ما ذكرَه قدامةُ والبغداديُّ: "ولو علَق إنما يعلقُ شيءٌ يسيرٌ؛ بحيثُ يقطرُ، ولا يَسِيلُ، وكثرةُ الدَّمِ على السيفِ تدلُّ على ثقلِ حركةِ الضَّاربِ، وضعفِ ساعدِه، ومِن هنا يظهرُ الجوابُ عن الثامنِ أيضًا". يقصدُ بالثامن: ما عيبَ على حسَّانٍ مِن إفرادِ الدَّمِ في قولِه: (دمَا)، ولو قال: (دِمَاء) كانَ أكثرَ. ومآلُ ما نقَلَه البغداديُّ وما قالَه ابنُ معصومٍ المدنيُّ: كثرةُ القتلِ الناشئةُ عن مضاءِ السَّيْفِ وسرعةِ استعمالِ الضَّاربِ لهُ، وهذا ضِدُّ الغَرَضِ.

١جاء في أنوار الربيع في أنواع البديع ٤/٢٠٨–٢٠٩: "وقلتَ: (دمَا)؛ والدماءُ أكثرُ مِن الدَّمِ".

والقَرْيِ، وجفناتُ المُلُوكِ السَّادةِ الذينَ (يَرْشَحُونَ المِسْكَ والدَّما)؛ وهم في ميدانِ المعركةِ، وجفناتُ مَن تُؤْلَفُ بيوتُهُم، أصحابِ العُرْفِ – أي: (المعروفِ) – في حالِ اليُسْرِ وحالِ العُسْرِ؛ فهم في كلِّ أحوالِهِم مَلْجأُ المُحْتاجِينَ، وجفناتُ قومٍ مُلُوكٍ إذا وَصَلَ الواحدُ منهم كفَّهُ بكَفِّ نديمٍ مِن ندمائِهِم تُمْطِرُ الخيرَ كَفُّهُ، وقد ترتَّبَ على هذهِ الصيغةِ في نُورِ هذا المعنى قَصْرُ: (الجفنات) عليهم؛ بطريقِ تقديمِ الخبرِ: (لَنَا) على المُبْتَدَأِ: (الجفناتُ ...)؛ فلَمَّا كانَتْ تلكَ الجفناتُ جفناتٍ خاصَّةً؛ لتميُّزِهَا، فهيَ خاصَّةٌ بحسَّانٍ وقومِهِ؛ لأنهم أخَصُّ أهلِ الجُودِ والكَرَمِ: لم يَعْتَدَّ الشَّاعِرُ بجفناتِ غيرِهم؛ كأنه لا جفناتِ لغيرهم؛ فهو قصرٌ ادِّعائيٌّ؛ مبالغةً في اختصاصِهِم بالكرمِ الشديدِ. ويجوزُ أنْ تكونَ هذه الصيغةُ في نُورِ دلالتِها المذكورةِ تعليلًا في المعنى لأسلوبِ القَصْرِ، أي: هيَ جوابُ سؤالٍ مَفَادُه: لماذا لم يَعْتَدَّ صاحِبُنا بجفناتِ غيرِهِم، وجعَل الجفناتِ مقصورةً عليهِم؟، فتكونُ هذه الصيغةُ مُشيرةً إلى أنَّ هذا القَصْرَ كأنَّهُ حقيقيٌّ تحقيقيٌّ، أي: تُوهِمُ أنَّ الأصلَ أنَّ الجفناتِ لهُم، وأنْ لا جفناتِ تُذْكَرُ في سياقِ القَرْيِ والجُودِ لغيرِهِم، أي: يكونُ حالُ القَصْرِ وصيغةِ القِلَّةِ كحالِ الاستعارةِ المُرَشَّحةِ. ومِن المُفِيدِ أنْ نستحضِرَ هنا أنَّ البيتَ الذي اشتمَل على التعبيرِ بـ: (الجفناتُ) جاءَ في مقطعِ القصيدةِ؛ فالمُتلقِّي قد تلقَّى ما يتأسَّسُ عليهِ هذا التعبيرُ –؛ إذا كانَ تلقِّيهِ حيًّا واعِيًا يَقِظًا – قبلَ أنْ يتلقَّاهُ.

<u>وأمَّا: (الدَّليلُ التَّفْصِيليُّ مِن سياقِ القَصِيدةِ؛ معنًى، وصُورَةً معنًى): فإليكَ بيانَهُ؛ مَصْحُوبًا بنظرٍ في عباراتِ النَّقْدِ:</u>

قولُ النابغةِ: (١): **(أنتَ شاعِرٌ، ولكنَّك أقللتَ جِفانك وأسيافك، وفخرتَ بمَن ولدتَ، ولم تفخر بمَن ولدك)**، أي: أنتَ شاعرٌ، ولكنَّك لستَ فَحْلًا؛ لأن الفُحُولَ لا يَقَعُونَ في مِثْلِ ما وقعتَ فيه، يريدُ النابغةُ أن يقولَ ذلكَ؛ ليُقلِّلَ مِن شأنِ حسَّانٍ. وباقي القصيدةِ غيرُ ما وَجَّهَ إليه النابغةُ سهامَ نقدِه: هوَ معظمُ القصيدةِ، وتحتَ نقدِ النابغةِ شهادتُه بجَوْدتِه. ونقدُ النابغةِ له أكثرُ مِن روايةٍ في

النقلِ الذي نقلتُه، فقد مضَى ذكرُ روايةٍ. (٢): والثانيةُ: **(ما صنعتَ شيئا؛ قلّلتَ أمرَكم؛ فقلتَ: جفنات، وأسياف)**[١]. وقولُه: (ما صنعتَ شيئًا): أي: أنَّ التقليلَ في الجفناتِ والأسيافِ أضْعَفَ المعنى الذي جَرَيَا فيه، فأضْعَفَ الفخرَ؛ ولهذا قالَ: (قلَّلْتَ أمرَكُم)، فسلَّطَ التقليلَ على أمرِهم الذي مدارُ القصيدةِ عليهِ، وهذا مِن جديدِ المعنى في هذهِ الرِّوايةِ. وضَعْ قولَه: (ما صنعتَ شيئًا) بجوارِ قولِه: (أنتَ شاعرٌ): تَفْهَمْ أن غرضَ النابغةِ أن حسَّانًا ليس مِن الفُحُولِ. وفي هذه الرِّوَايةِ نصفُ النقدِ الذي في الرِوَايةِ الأُولى. (٣): والرِّوَايَةُ الثالثةُ نَفْسُ الروايةِ الأُولى، وهيَ: **(أنْتَ شاعِرٌ، ولكنَّك أقللتَ جِفانك وأسيافك، وفخرتَ بمَن ولدتَ، ولم تفخر بمَن ولدك)**.

ونقدُ الصُّوليِّ في هذا النَّصِّ أخَذَ حيِّزًا كبيرًا، وقد نالَ إعجابَ بعضِ أهلِ العلمِ في زمانِنَا[٢]. وهو قولُ المرزبانيِّ: (قالَ الصُّوليُّ: فانْظُرْ إلى هذا النقدِ

١وجملةُ: (قلَّلتَ أمْرَكُم): لم تُعْطَفْ على ما قبلَها بالواوِ؛ لأنها تفصيلٌ وبيانٌ لما قبلَها؛ فبينهما كمالُ اتِّصالٍ. أو هيَ استئنافٌ بيانيٌّ؛ على تقديرِ أنَّ ما قبلَها تُثِيرُ سؤالًا عن علةِ نفيِ أنه صنَع شيئًا.

٢هو شيخنا الدكتور محمد الخضري. وإنه إعجابٌ مُؤسَّسٌ على الظاهرِ مِن المقاييسِ البلاغيةِ والنقديةِ العامَّةِ للفخرِ، ولم يُلاحِظْ سياقَ فخرِ حسَّانٍ في قصيدتِه، نعم، إن في مُطْلَقِ التفرقةِ بينَ أوزانِ القِلَّةِ وصِيَغِ الكثرةِ تنبيهًا على حِكْمَةِ اللغةِ وفلسفتِها في تعدُّدِ صيغِ الجُمُوعِ وتنوُّعِ دلالاتِها، وأن لكلِّ صيغةٍ مقامًا يُنادِي عليها، وتليقُ به. وسياقُ جمعِ الكثرةِ: (جفان) في آية سورةِ: (سبأ) غيرُ سياقِ جمعِ القلةِ: (الجفنات) في قصيدة حسَّانٍ. ومِن المفيدِ أنْ أذكُر كلامَ شيخِنَا معَ ما فيه مِن طُولٍ؛ لأنه مِمَّنْ يُؤْخَذُ عنهُم العِلْمُ. يقولُ العلَّامةُ الدكتور الخُضَرِيُّ: "توطئةٌ: في عبارةٍ مُوجَزَةٍ كشَفَ النابغةُ الذبيانيُّ عَنْ حِكْمَةِ اللغةِ وفلسفتِها في تعدُّدِ صيغِ الجُمُوعِ وتنوُّعِ دلالاتِها، وأبانَ عن وَعْيِ العربيِّ ويقظتِه في اختيارِ الصيغةِ القادرةِ على أن تَشِيعَ في نفس المُتلقِّي ما تَحْمِلُه مِن دقائقِ الإشاراتِ، وخفَايَا المقاصدِ، ولفتَ النظرَ إلى لونٍ مِن الدراساتِ البيانيَّةِ والنقديَّةِ؛ يَهْدِفُ إلى الرَّبْطِ بينَ =

الجليلِ ... إلا أنّ الغُرَّ أجَلُّ لفْظًا مِن البِيضِ)، وفي هذا النقدِ تفصيلٌ ليس في الرواياتِ السابقِ ذِكْرُها.

وقوله: **(فانظُرْ إلى هذا النَّقْدِ الجليلِ الذي يَدُلُّ عليهِ نَقَاءُ كلامِ النابغةِ، ودِيباجَةُ شِعْرِهِ)**: فيهِ تعظيمُ نقدِ النابغةِ. وفيه أن النابغةَ لحَظَ ما عكَّرَ صَفْوَ قصيدةِ حسَّانٍ، وأنْقَصَ مِن ديباجتِها، وذلك مُؤسَّسٌ على أن النابغةَ ذو كلامٍ مُتحقِّقٍ بصفاتِ الشعرِ الجيِّدِ الفحلِ، فكلامُه ذو نقاءٍ وديباجةٍ، ولولا أنه شاعرٌ يتَّصِفُ شِعْرُه بالمذكورِ لَمَا كانَ منه هذا النَّقْدُ، ففي هذه العبارةِ وَصْفٌ لشِعْرِ

=

دلالاتِ الصيغِ؛ إفرادًا وجَمْعًا، قِلَّةً وكثرةً – وبيْنَ منافذِ القولِ وأغراضِ المُتكلِّمينَ، ويَعْمِدُ إلى اسْتِكْناهِ أسرارِ النفوسِ؛ للوقوع على أسبابِ المغايرةِ بينَ الصِّيَغِ، ووضْعِ إحداها في موضِعِ الأُخرى؛ وفاءً بحاجاتِ الكلامِ، أو قُصُورًا عن استِلْهامِ وَحْيِ اللغةِ، والتقاطِ إشاراتِهَا؛ في لَحْظَةٍ تَفْتُرُ فيها نفْسُ المُبْدِعِ، فقد رَوَى المَرْزُبانيُّ أن حسانَ بنَ ثابتٍ أنشدَ النابغةَ قولَه: (ثم لخَّصَ نقدَ النابغةِ، وتعليقَ الصوليِّ عليهِ، ثم قالَ): فتَرَتْ نفسُ حسَّانٍ لحظةً، فذهبَتْ دِيباجَةُ شِعْرِه؛ حينَ لم يُلائِمْ بينَ مقامِ الفخرِ بما يقتضيهِ مِن المبالغةِ في امتداحِ قومِهِ بكثرةِ القِرَى، وفَرْطِ الشجاعةِ – وبينَ صيغةِ الجَمْعِ التي جاءَ بها دالَّةً على القِلَّةِ، وكان انقطاعُ حسَّانٍ بينَ يدَي النابغةِ تسليمًا منه بهذا الإلْفِ العربيِّ في استعمالاتِ صِيَغِ الجَمْعِ، وتفاوتِ دلالاتِهَا، يُؤكِّدُ صفاءَ حِسِّ النابغةِ وحُسْنَ دِيباجتِهِ – على حدِّ وصفِ الصُّوليِّ له –: أنَّ القرآنَ في مقامِ الامتنانِ على نبيِّه سليمانَ – عليه السلامُ – وتعديدِ نِعَمِه عليه: جاءَ بصيغةِ الكثرةِ: {جِفَان} في قوله – تعالى –: ﴿ يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ ﴾[سبأ:١٣].؛ لتتلاقَى ظِلالُ الكثرةِ في صيغةِ الجَمْعِ معَ امتدادِ ظِلالِ النِّعَمِ الوفيرةِ التي شمِلَ اللهُ بها نبيَّه الكريمَ". انتهى مِن: الإعجاز البياني في صيغ الألفاظ: دراسة تحليلية للإفراد والجمع في القرآن – الْمَبْحَثُ الثَّانِيْ: نَقْدُ تَوْطِئَةِ الْكِتَابِ، وَتَحْلِيْلُهَا، ص:٦–٧. وقولُه: (وكانَ انقطاعُ حسَّانٍ ... تسليمًا ...): لا أفْهَمُ الانقطاعَ على أنه هذا التسليمُ، وقد سبَق أنْ تعرَضَتُ لذلك.

النابغةِ، وحُكْمٌ عليهِ؛ على الجملةِ، والغرضُ منه بيانُ أنَّ النابغةَ أهلٌ لأنْ ينقُد غيرَهُ مِن الشُّعَراءِ.

وقولُه: **(أقللتَ أسيافَك؛ لأنه قال: «وأسيافُنا»، وأسيافٌ جمعٌ لأدْنَى العَدَدِ، والكثيرُ: سُيُوفٌ. والجفناتُ لأَدْنى العدَدِ، والكثيرُ: جِفَانٌ)**: تفصيلٌ لتقليلِ حسَّانٍ أمرَه وأمرَ قومِه بالتقليلِ في الجفناتِ والأسيافِ في الرواياتِ السابقةِ. **ولكِنْ أين دَاعِي التَّعْبِيرِ بجَمْعِ الكثرةِ: (الجِفَان)، و: (سُيُوف) مِن سياقِ القصيدةِ – في كلامِ النابغةِ، أو في كلامِ الصولي نفسِه؟!**، أهو معلومٌ إلى درجةِ أنْ يُسْتَغْنَى عن التصريحِ بهِ؟، كلَّا، وإنما هوَ غَيْرَةُ النابغةِ، وحَسَدُهُ، وعدمُ إنصافِهِ، واتِّباعُهُ هَوَاهُ، ومِثْلُه يتَّبِعُ هَوَاهُ، وإنما هُوَ الموَافقةُ مِن الصُّولِيِّ مِن غيرِ مُراجَعَةٍ وتمحيصٍ ونقْدٍ، وواجِبُ العِلْمِ الشريفِ ذلكَ. وقلتُ: (مِن سياقِ القصيدةِ)؛ لأنه قد يُجابُ بأنَّ الدَّاعِيَ هو مناسبةُ مقامِ الفخرِ الذي يقتضِي – على الجملةِ – الكثرةَ، والمُبالغةَ، وما جَرَى في هذا الطريقِ مِن المعنى[1]. وقولُه: **(جمعٌ لأدْنَى العَدَدِ)**: معناهُ:

١ذكَر القرطاجنيُّ أنَّ الشيءَ المقصودَ مدحُه أو ذمُّه لا يخلو مِن أنْ يُوصَفَ بما يكونُ فيه؛ واجبًا، أو مُمْكِنًا، أو مُمْتنِعًا، أو مستحيلًا، وفصَّلَ القولَ في ذلكَ؛ ومنه أنَّ الوصفَ بالمستحيلِ أفْحَشُ ما يُمْكِنُ أنْ يقَع فيه جاهلٌ أو غالِطٌ في هذهِ الصِّناعةِ، وأنَّ الممتنعَ قد يقَعُ في الكلامِ إلَّا أنَّ ذلكَ لا يُسْتَسَاغُ إلَّا على جهةٍ مِن المجازِ، وأنَّ مدارَ الأوصافِ إذن – بالنَّظر إلى ما يُستساغُ ويُؤثَرُ – إنما هوَ على ما كانَ واجبًا واقِعًا، أو مُمْكِنًا مُعْتادَ الوقوعِ أو مُقَدَّرَه، وأنه بهذا التّرتيبِ يتبيَّنُ ما يَصِحُّ ويَحْسُنُ مِن المبالغةِ، وما لا يَصِحُّ منها ولا يُحْسِنُ؛ فإنَّ العلماءَ بصناعةِ البلاغةِ مُتَّفِقُونَ على أنَّ ما أدَّى إلى الإحالةِ قبيحٌ، وقد خالَفَ في هذا جماعةٌ مِمَّن لا تحقيقَ عندَه في هذهِ الصِّناعةِ ولا بصيرةَ لهُ بها؛ فاسْتَحْسَنُوا مِن المبالغةِ ما خرَج عن حدِّ الحقيقةِ إلى حيِّزِ الاستحالةِ، واحْتَجُّوا بمُطالبةِ النابغةِ حسَّانَ بنَ ثابتٍ بالمبالغةِ في أوصافِه حينَ أنشَدَه قولَه: (لنا الجفناتُ الغُرُّ ...)، فقالَ لهُ: (قَلَّلْتَ جفانَكَ وسيوفَكَ)، ولو قلتَ: (الجفان والسيوف): لكانَ أبلغَ. والبُصَرَاءُ بصناعةِ البلاغةِ العارِفُونَ بما يجبُ فيها يقولونَ: إنما طالَبَ النابغةُ حسَّانًا بمبالغةٍ حقيقيَّةٍ؛ وهيَ تكثيرُ =

جمعُ القِلَّةِ. وقولُه: (**والكثيرُ**): معناهُ: جمعُ الكثرةِ. و: (أسيافٌ) على وزنِ: (أَفْعَال)، فهو مِن أوزانِ القِلَّةِ باتِّفاقٍ. و: (الجفنات): جمعُ مؤنَّثٍ سالِمٌ، وجَمْعَا المُذَكَّرِ والمُؤنَّثِ السالِمَانِ مُلْحَقانِ بأوزانِ القِلَّةِ، قالَ الزركشيُّ: "واعلمْ أنَّ جُمُوعَ التكثيرِ الأربعةَ وجَمْعَي التصحيحِ – أعني جَمْعَ التأنيثِ وجَمْعَ التذكيرِ – كلُّ ذلك للقِلَّةِ، أمَّا جُمُوعُ التكسيرِ فبالوَضْعِ، وأما جَمْعَا التصحيحِ فلأنهمَا أقربُ إلى التثنيةِ، وهيَ أقلُّ العددِ، فوجبَ أنْ يكونَ الجَمْعُ المُشابِهُ لها بمنزلتِها في القِلَّةِ، وما عداهَا مِنَ الجُمُوعِ فيَرِدُ تارةً للقِلَّةِ، وتارةً للكثرةِ بحسبِ القرائنِ"[١].

إنَّ قصيدةَ حسَّانٍ "مَعْقُودةٌ على بيانِ ما فيهِ حسَّانٌ، وما فيهِ قومُه؛ مِن ثَرَاءٍ وخصبٍ، ومعنى الثَّراءِ، والقوَّةِ، والقِرَى، وكرمِ العِرْقِ: يَجْرِي في القصيدةِ كلِّها"[٢]. ففيها يجري قسمانِ كبيرانِ مِن المعنى؛ أحدُهُما: قِسْمُ الكَرَمِ والجُودِ وما جَرَى في طريقِ ذلكَ مِن المعنى. والآخَرُ: قِسْمُ القوَّةِ والشَّجاعةِ وشِدَّةِ البأسِ في الحربِ وما جَرَى في هذا الطريقِ مِن المعنى. والقِسْمُ الأَوَّلُ هوَ الأصلُ، وهوَ المقصودُ

=

الجفانِ والسيوفِ، فاسْتَدْرَكَ عليهِ التقصيرَ عمَّا يُمْكِنُ فيما وَصَفَ، ولم يُطالِبْهُ بتجاوُزِ غايةِ المُمْكِنِ، والخروجِ إلى ما يَسْتَحِيلُ. ينظر: منهاج البلغاء، وسراج الأدباء، صنعة أبي الحسن حازم القرطاجني، ص:١٣٣-١٣٤.

فحازم القرطاجنيُّ يرَى أنَّ المبالغةَ التي طُلِبَتْ مِن حسَّانٍ: مِن القِسْمِ المُمْكِنِ الذي تتوفَّرُ دواعِيهِ بقوَّةٍ؛ وهو مقامُ الفخرِ، وكلَّما توفَّرتْ دواعي الإمكانِ كانَ الوصفُ أوْقَعَ في النَّفْسِ، وأدْخَلَ في حيِّزِ الصِّحَّةِ، وليس مِن القِسْمِ المستحيلِ، وهذا صوابٌ على الجملةِ، لكنه أشْبَهُ بالتَّقْعِيدِ الذي هو ضرْبَةُ لازِبٍ؛ لا يُراعِي خُصُوصِيَّاتِ السِّيَاقَاتِ؛ فهذه المبالغةُ الحقيقيَّةُ لا يقتضيها فخرُ حسَّانٍ في القصيدةِ.

١البرهان في علوم القرآن ٣/٣٥٦.

٢قراءة في الأدب القديم، ص: (و/و).

الأعظمُ في القصيدةِ، والقِسْمُ الثاني تابِعٌ لهُ، فهو مِن تمامِه، وليس نِدًّا لهُ؛ فإليكَ برهانَ ذلكَ مِن واقِعِ سياقِ القصيدةِ:

بدأتِ القصيدةُ بسؤالِ الرَّبْعِ أنْ يتكلَّمَ على لسانِ شخصٍ جرَّدَهُ حسَّانٌ مِن نفْسِه، أو على جعْلِه خَصْمًا له حقيقةً، أو وَسِيلَةً فنِّيَّةً، وبيانِ موقِعِ هذا الربعِ، وهذا في البيتِ الأوَّلِ. وفي البيتِ الثاني أنَّ الرَّبْعَ أبَى أنْ يتكلَّمَ، وقالَ حسَّانٌ في سببِ ذلكَ: (وهَلْ ينطقُ المعروفَ مَن كانَ أبْكَمَا؟)، والشَّاهِدُ هُنَا قولُه: (المعروفَ)؛ وهو في اللغةِ كلُّ حَسَنٍ مِن الأقوالِ والأفعالِ مِمَّا يدخلُ في دائرةِ الخيرِ، وتطمئنُّ إليهِ النَّفْسُ؛ قال ابنُ فارسٍ: "العينُ والراءُ والفاءُ: أصْلانِ صحيحانِ؛ يدلُّ أحدُهما على تتابُعِ الشيءِ مُتَّصِلًا بعضُه ببعضٍ، والآخَرُ على السُّكُونِ والطُّمأْنِينةِ ... والعُرْفُ: المعروفُ، وسُمِّيَ بذلكَ؛ لأنَّ النفوسَ تسكُن إليهِ؛ قالَ النابغةُ: **(أبَى اللهُ إلَّا عَدْلَهُ ووفاءَهُ * فلا النُّكْرُ معروفٌ، ولا العُرْفُ ضائِعُ)** ..."[1]. وحسَّانٌ قالَ في وسَطِ القصيدةِ: (كذي العُرْفِ)، وقالَ في مقطعِها: (أبَى فعلُنا المعروفَ)، و: (قائلُنا بالعُرْفِ)؛ فهذه الكلمةُ: (المعروفُ) هيَ جِذْرُ المعنى الأُمِّ في القصيدةِ؛ فيرجِعُ إليها كلُّ معاني القصيدةِ؛ فأمَّا رجوعُ معاني قِسْمِ الكَرَمِ والجُودِ فظاهرٌ وقويٌّ، ويرجِعُ إليها معاني القِسْمِ الثاني على أنه مِن بابِ الكَرَمِ والجُودِ أيضًا؛ لأنه تابِعٌ للقِسْمِ الأوَّلِ، وهذه الكلمةُ: (المعروف): تُفْهِمُ أنهُ تابِعٌ لهُ، ومِن تمامِه؛ لأنه بذلٌ للنَّفْسِ مِن أجلِ الغَيْرِ؛ وتُفْهِمُ أيضًا عظيمَ أثَرِ الجودِ الحِسِّيِّ في النَّفْسِ، وأنَّ ذلكَ مقصودٌ مُعْتَبَرٌ في الفَخْرِ؛ فالكَرَمُ في القصيدةِ لهُ مفهومٌ وسيعٌ؛ حيثُ يكونُ الجودُ بالمالِ والطعامِ وغيرِهما مِن الحِسِّيَّاتِ والمعنويَّاتِ؛ فحسَّانٌ وقومُه يُكْرِمونَ غيرَهُم، ويَحْمُونَ أرضَهُم وعِرْضَهُم وثروتَهُم وأموالَهُم؛ مِن أجلِ أنْ لا ينقطِعَ هذا الجُودُ، ثم هم يُسوِّدُون ذا المالِ

١معجم مقاييس اللغة، ٢٨١/٤. مادة: (ع ر ف).

القليلِ؛ إذا بدَتْ مروءَتُه فيهم؛ وإنْ كانَ مُصْرِمًا، ثم هُمْ يَنْصُرُونَ غيرَهُم، ويدافعونَ عنه؛ إذا كانَ ذلكَ ظُلْمًا، لاسيما إذا كانَ هذا الغيرُ ضعيفًا؛ ألم يقُل: **(وَأَسْيَافُنا يَقْطُرْنَ مِنْ نَجْدَةٍ دَمَا)**؟؛ فقولُه: **(مِن نَجْدةٍ)** هو جوهرُ المعنى في هذا الشَّطْرِ مِن البيتِ، وبهِ يرجِعُ إلى كلمةِ: (المعروفَ).

ويُلاحَظُ أنه قال: (مِن نجدةٍ)، ولم يقُل: (مِن نجداتٍ)، وأنَّ الظاهرَ أنَّ الأبلغَ في المدحِ بالشجاعةِ في القتالِ؛ دفاعًا عن الغيرِ ومَعُونةً ونُصْرةً لهُ: أنْ يُقَالَ: (مِن نجداتٍ)، ولكنَّ هذا الجمعَ يُعكِّرُ صَفْوَ معنَى أنهم قومٌ يقعدونَ للكرم، ولا ينشغلونَ بالحربِ كثيرًا؛ مِن جهةٍ. ويقتضِي أنْ يُعبَّر بما اقترحَهُ النابغةُ أو غيرُه مِن: السيوف، ويجرين، أو يسلن، أو يفضن، والدماء؛ مِن جهةٍ ثانيةٍ. ثم عليه تفوتُ المبالغةُ في المدحِ بالشجاعةِ والبَأْسِ؛ باختلالِ التَّقابُلِ بينَ: (مِن نجداتٍ) – وبينَ صيغةِ القِلَّةِ في قولِه: (وأسيافنا)، والتعبيرِ بالقطرِ والدَّمِ؛ مِن جهةٍ ثالثةٍ؛ فهم لهم أسيافٌ –؛ مِن حيثُ هو جمعٌ – عندَ القتالِ مِن أجلِ (نجدةٍ)؛ فبذلكَ تظهرُ القوةُ والجَرْأةُ والشجاعةُ، ويتناسَبُ مع هذا: (يقطرن – دمَا)، وذلك كلُّه لا يكونُ لو قيلَ: (مِن نجداتٍ) في مقابلةِ: (أسياف)؛ مِن حيثُ هو جمعٌ. وأمَّا الاختلالُ بينَ: (مِن نجداتٍ) – وبينَ: (يقطرن – دمَا): فظاهرٌ جِدًّا[1]. وحسَّنَ التعبيرَ بالمفردِ: (نجدة) في مقامِ الفخرِ بالشجاعةِ تنكيرُه؛ بما فيهِ مِن دلالةِ التعظيمِ[2]. وهذهِ الدلالةُ لا تتعانَدُ معَ أحوالِ كرمِهم في القصيدةِ.

ولنَرْجِعْ إلى البيتِ الأوَّلِ؛ فنَرَى أنَّ الشَّاعرَ جعَل صاحبَه هذا كأنه عَذُولٌ؛ نزَّلَه منزلةَ مَن يحتاجُ إلى أنْ يَسْألَ الربعَ الجديدَ التَّكَلُّمَ. وأنه لو كانَ لهذا الرَّبْعِ أن يتكلَّمَ لتكلَّمَ بمآثِرِنَا ووجوهِ عِزِّنَا؛ لأنها مِن الغزارةِ بحيثُ تُنْطِقُ الأخْرَسَ

١جاء في أنوار الربيع في أنواع البديع: ٢٠٨/٤: "وقلتَ: (مِن نجدةٍ)؛ والنَّجداتُ أكثرُ".

٢جاء في أنوار الربيع في أنواع البديع: ٢١٠/٤: "وعنِ السابعِ: أنَّ التنكيرَ في قولِه: (مِن نجدةٍ) للتَّعْظِيمِ، فالمبالغةُ موجودةٌ".

والأبْكَمَ، ولكنه لا يتكلَّمُ؛ لأنه ليس مِن شأنِه التَّكلُّمُ، وسوَّغَ سؤالَه أنه كأنه ربعٌ جديدٌ على السَّائِلِ، أي: كأنه لا عَهْدَ لهُ بهِ، أو حصَل بينهما قَطْعٌ، أو انقطاعٌ. وقلتُ: (لأنها مِن الغزارةِ)؛ أخْذًا مِن قولِه: **(بِمَدْفَعِ أشْدَاخٍ، فَبُرْقَةَ أَظْلَمَا)**، فالمَدْفَعُ جمعُه مَدافِعُ، وهوَ اسمُ مكانٍ لتَدَافُعِ السَّيْلِ العظيمِ، كأنَّ هذا المعنى يَرْشَحُ مِن نفسِه على ما يُطْلَبُ مِن الربعِ أنْ يَتكلَّمَ به، وهو مَآثِرُ حسَّانٍ وقومِه التي شهِدَها هذا الربعُ، وشهدَتْها أماكنُ أُخْرَى كأشداخٍ الذي هو وادٍ مِن أوديةِ المدينةِ[1]. فذِكْرُ المكانِ يدلُّ على غزارةِ المآثِرِ، ويُهيِّجُ الذِّكْرَيَاتِ في نفسِ الشاعرِ، فتجري في نفسِه معاني الفخرِ والمدحِ، ولا يخلو مِن احتجاجٍ على ما يقولُ عندَ مُلاحَظَةِ الخَصْمِ، وهذا مِن بلاغةِ الأماكنِ في الشِّعْرِ.

والإباءُ الذي أثبتَه الشاعرُ لرسمِ دار الحيِّ: يزيدُ في بيانِ ضرورةِ أن يتكلَّمَ الشاعرُ بالمطلوبِ؛ فليس يتكلَّمُ بذلك مَن هو أفصحُ منه، ويشيرُ إلى خصومةِ الصاحبِ ورفضِه أن ينطقَ بمآثِرِ حسَّانٍ وقومِه. كذلك يشيرُ إلى هذا كلِّه التعبيرُ بالأبكمِ في: (وَهَلْ يَنْطِقُ الْمَعْرُوفَ مَنْ كَانَ أبْكَمَا؟)؛ وصاحبُه ليس بأخْرَسَ، ولكنَّه يرفضُ مجرَّدَ النطقِ بمآثِرِ حسَّانٍ وقومِه، فكان أبكمَ، قال ابنُ فارسٍ: "الْبَاءُ وَالْكَافُ وَالْمِيمُ أَصْلٌ وَاحِدٌ قَلِيلٌ، وَهُوَ الْخَرَسُ. قَالَ الْخَلِيلُ: الْأَبْكَمُ: الْأَخْرَسُ لَا يَتَكَلَّمُ، وَإِذَا امْتَنَعَ مِنَ الْكَلَامِ جَهْلًا أَوْ تَعَمُّدًا يُقَالُ: بَكِمَ عَنِ الْكَلَامِ. وَقَدْ يُقَالُ لِلَّذِي لَا يُفْصِحُ: إِنَّهُ لَأَبْكَمُ ..."[2]. ولاحِظْ أن الشاعرَ حمَل مَن على لفظِها بالإفرادِ والتذكيرِ، فقال: **(وَهَلْ يَنْطِقُ الْمَعْرُوفَ مَنْ كَانَ أبْكَمَا؟)**، وأنه أسَّسَ ذلك

١ينظر تفسيرُ هذه المفردات في: الديوان ص:١٢٦. وقراءة في الأدب القديم، ص:١٠٤. وفي هذيْنِ: أن البُرْقَةَ – بضمِّ الباءِ وسكونِ الراءِ – حجارةٌ ورملٌ وطينٌ، ومنه قيل: جبلٌ أبرق: إذا كانت فيه قوةٌ بيضاءُ وقوةٌ سوداءُ. وفي الديوان: أن: (مدفع) سيلٌ عظيمٌ إلى الوادي.

٢معجم مقاييس اللغة ٢٨٤/١. مادة: (ب ك م).

على الإفرادِ في: (يَنْطِقُ)؛ ليتناغَى ذلك معَ كونَ الخطابِ في شطرِ البيتِ الأولِ لواحدٍ مُذَكَّرٍ. **واستحضارُ هذه الخصومةِ التي ربما تكونُ حقيقةً، وربما تكونُ غيرَ ذلك – استحضارًا لطيفًا:** مِن شأنه أن يَشْحَذَ نفسيَّةَ الشاعرِ، وأن يُهيِّجَهَا للمدحِ والفخرِ. وبلاغةُ الشاعرِ هنا تكمُن في لُطْفِ استحضارِها، فلم يُصرِّحْ بها، وإنما أومأ إليها إيماءً؛ لأنها خصومةٌ باطلةٌ يدحضُها ما سيتلوهُ الشاعرُ مِن مآثِرَ وصفاتٍ وعِزٍّ لـه ولقومِـه. وإذا لـم تكن خصـومةٌ: كـان استحضـارُها وسيلةً فنيَّـةً تُحقِّقُ ما ذكرتُ كما يتحقَّقُ ذلك إذا كانت حقيقةً.

إنَّ حَسَّانًا قد منعَه مِن الرِّحْلةِ في إثرِ المحبوبةِ الكرمُ والقَرْيُ، وذلك والحبُّ طرفانِ ليس أحدُهُما أدنى، والآخَرُ أعلى، وإنما هما مُتقارِبانِ، أحدُهما مُهِمٌّ؛ وهوَ الحُبُّ والعِشْقُ، والآخَرُ أهَمُّ؛ وهو الجُودُ والقَرْيُ؛ فهو لَنْ يَنْسَى محبوبتَه، وسيظلُّ وفيًّا لها؛ بدليلِ قولِه: **(سأُهْدِي لها في كلِّ عامٍ قصيدةً)**، ورَاجِعْ احتفَالَهُ بها؛ فهو إهداءٌ، لا إعطاءٌ، وفخَّمَ الهديَّةَ بتعديةِ الفعلِ باللامِ، وكانَ بإمكانِه أنْ يُعَدِّيَه بنفسِه: (سأهديها)، وتفخيمُها تفخيمٌ للمحبوبةِ، وكلُّ ذلكَ مِن (المعروفِ) في سياقِ العِشْقِ والمَحبَّةِ، وشِعْرُ حسَّانٍ مِمَّا يُكْرِمُ بها غيرَه؛ فهوَ نصيبُ محبوبتِه مِن جُودِه وكرمِه؛ لأنها لا تحتاجُ إلى طعامٍ وشرابٍ ولِبَاسٍ؛ فقد قالَ: **(تنادَوْا بليلٍ، فاستقلَّتْ حُمُولُهُم * وعالَيْنَ أنْماطَ الدِّرَقْلِ المُرقَّمَا)**.

إن حسَّانًا وقومَه كأنَّ حياتَهُم مقصورةٌ على الكرمِ والإكرامِ والقَرْيِ وما جَرَى في هذا الطريقِ مِن المعنى؛ فقد بدأَ الشاعرُ – مِن بعدِ الحديثِ عن الصاحبةِ – بالحديثِ عن كرمِه وكرمِ قومِه، وأنه لَنْ يَرْحَلَ في إثرِ المحبوبةِ؛ لأنه سيَقْعدُ سَيِّدًا مَلِكًا مُكَرَّمًا في قومِهِ، وسيَكْتَفِي بأنْ يرسلَ لها في كلِّ عامٍ قصيدةً، يقولُ الشاعرُ: **(سَأُهْدِي لَهَا فِي كُلِّ عَامٍ قَصِيدَةً * وَأَقْعُدُ مَكْفِيًّا بِيَثْرِبَ مُكْرَمَا)**، ثم قال بعدَ ذلكَ

مباشرةً: **(أَلَسْتُ بـ: نِعْمَ الْجَارُ يُؤْلَفُ بَيْتُهُ ...)**[1]. وهذا دخولٌ صريحٌ في الحديثِ عن الكرمِ، وهو الأصلُ في حياتِهِم، وهو مقصدُ مقاصدِهم. وراجِعِ التجاورَ بينَ: **(مُكْرَمًا)** وبينَ: **(أَلَسْتُ بـ: نِعْمَ الْجَارُ يُؤْلَفُ بَيْتُهُ ...)**، وأنَّ فيه معنى أنَّ مَن يَأْلَفُون بيتَه كأنهم مِن الذين يُكْرِمُونه؛ باستجابتِهِم لدعوتِه، ولثقتِهِم في شرفِه وسيادتِه، فحسَّانٌ وقومُه يرَوْنَ لزائرِهِم فَضْلًا عليهم!!، وليس يَرَى لضَيْفِه فَضْلًا عليه إلا الكِرَامُ؛ هل ترَى كرامًا كهؤلاءِ؟!، وهل ترى أنَّ مِن شأنِ مِثْلِهِم حُبَّ الدِّماءِ والأشلاءِ والذَّبْحِ والقَتْلِ؟!.

قالَ حسَّانٌ مِن بعدِ بيتِ الإهداءِ: **(أَلَسْتُ بـ: نِعْمَ الْجَارُ يُؤْلَفُ بَيْتُهُ * كَذِي الْعُرْفِ ذا مَالٍ كثيرٍ، ومُعْدِمَا * وَنَدْمانِ صِدْقٍ تُمْطِرُ الخيرَ كَفُّهُ * إذا رَاحَ فَيَّاضَ الْعَشِيَّاتِ خِضْرَمَا * وَصَلْتُ بِهِ كَفِّي، وَخَالَطَ شِيمَتِي * وَلَمْ أَكُ سِبًّا فِي النَّدَامَى مُلَوِّمَا)**، وجملةُ: **(وَأَقْعُدُ مَكْفِيًّا بِيَثْرِبَ مُكْرَمَا)**: هيَ التي فتَحَتْ البابَ لمجيءِ هذهِ الأبياتِ وغيرِها مِمَّا هو مِن بابِها في القصيدةِ؛ لأنها تفصيلٌ لها. وقولُه: (مكفيًّا): يعني به: أنَّ له مِن فتيانِ قومِه ورجالِهِم مَن يُلَبُّونَ أوامِرَه بقَرْيِ الناسِ والضُّيُوفِ، وسياقُ المدحِ والفخرِ يرفضُ أنْ يُفسَّر ذلكَ بأنهم يكفونَه هوَ، ويُحقِّقُونَ لهُ أغراضَهُ الشخصيَّةَ. وقولُه: (مُكْرَمَا): يريدُ بهِ: أنه ليس مُهَانًا بأنْ يُعْطَى مِن غيرِه؛ وإنما هوَ المُعْطِي؛ فأفرادُ قومِه وعشيرتِه يُكرِمُونهُ بإكرامِ قاصِدِيهِ، وتقديمِ الطعامِ والشرابِ لهم، وهذا مِن سَمْتِ المُلُوكِ كحسَّانٍ، وعطاءُ المُلُوكِ هوَ العطاءُ؛ المُمَيَّزُ الذي لا يُدانِيهِ عطاءٌ، ولا شكَّ عندي أنَّ ذلكَ قد آلَمَ النابغةَ، وأوجعَهُ!.

وقال حسَّانٌ: **(أَلَسْتُ بـ: نِعْمَ الْجَارُ يُؤْلَفُ بَيْتُهُ)**، ولم يقُل: (ألسْنَا بـ: نعمَ الجيرانِ تُؤلَفُ بيوتُنا)؛ لأنَّ هذا المعنَى موصولٌ بما قبلَه، وحسَّانٌ هو الذي مِن

١وهذا الترتيبُ حاصلٌ في كلِّ نسخِ الديوانِ التي وقفتُ عليها، وفي ذكرِ الشيخِ أبي موسى للقصيدةِ.

شأنِه أنْ يرحلَ في إثرِ المحبوبةِ، لا قومُه، فلهذا قال: **(وَأَقْعُدُ مَكْفِيًّا بِيَثْرِبَ مُكْرَمَا)**، ثم قالَ: **(أَلَسْتُ بـ: نِعْمَ الْجَارُ يُؤْلَفُ بَيْتُهُ)**، فأثبتَ الفعلَ لنفسِه في الظاهرِ، وهو في المعنى ثابتٌ لقومِه في نُورِ السياقِ الكُلِّيِّ للقصيدةِ، ولَمَّا ابتعدَ عن سياقِ الحديثِ عن الصاحبةِ، ودخَل في الحديثِ عن حروبِهِم، وتحدَّثَ عن كرمِهِم: قال: **(وَإِنَّا لَنَقْرِي الضَّيْفَ إِنْ جاءَ طارِقًا ...)**، فأثبتَ الفعلَ لقومِه؛ ليكونَ وصفُهُم بذلك صريحًا. وفي الجمعيَّةِ هنا إشارةٌ إلى كثرةِ الضيوفِ الطارقينَ في أنفسِهِم؛ فإن لحسَّانٍ وقومِه بِيبَانًا تُطْرَقُ، وليس بابًا ولا أبوابًا، وهذا مِن صميمِ الفخرِ، ثم هؤلاءِ بالنسبةِ إلى عمومِ مَن يصيبُهُم قَرْيُ قومِه وكرمُهُم قليلونَ، ولهذا عبَّر بـ: إنْ الشرطيَّةِ في قولِه: (إنْ جاءَ طارِقًا)؛ **فذلكَ مِمَّا يَهْدِي إلى معنَى تميُّزِ كرمِهِم، وشديدِ بُعْدِهِم عن السَّعْيِ إلى الحربِ والقَتْلِ وإراقةِ الدِّماءِ**. وكذلكَ يُؤدِّي إليهِ: كونُ الضيفِ الواحدِ تَقْرِيهِ جماعةٌ في قولِه: **(وإنَّا لنَقْرِي الضَّيْفَ؛ إنْ جاءَ طارِقًا)**؛ فلم يقُل: (الضَّيْفَ؛ إنْ جاءوا طارقينَ).

ويُلاحَظُ أنَّ حسَّانًا وَسَّعَ دائرةَ العطاءِ؛ فالناسُ لا تألَفُ بيتَه مِن أجلِ الطَّعامِ والشَّرابِ فقط –؛ وإنْ كانَ ذلكَ في ذاتِه مدحًا وفخرًا عظيمًا –؛ وإنما مِن أجلِ التَّعَرُّضِ لرؤيتِه ومجلسِه؛ لأنه مِن السَّادةِ الأشرافِ الملوكِ الذينَ يُسْعَى إلى مجالسِهِم؛ وهيَ مجالِسُ الكِرَامِ، شُمِّ النُّفُوسِ، نَفْهَمُ هذا مِن التشبيهِ بذي العُرْفِ في قولِه: **(كذي العُرْفِ ذا مالٍ كثيرٍ، ومُعْدِمَا)**، وقولُه: **(ذا مالٍ كثيرٍ)**: حالٌ مُؤَوَّلةٌ، و: **(ومُعْدِمَا)**: معطوفٌ عليه، وهذا التشبيهُ يرجِعُ بالبيتِ إلى كلمةِ: (المعروف) في أوَّلِ القصيدةِ.

والإحساسُ بالتَّمَيُّزِ والتَّفَوُّقِ معَ ما يَصْحَبُ ذلكَ مِن معنَى الشُّهْرةِ: لهُ حُضُورٌ قويٌّ في القصيدةِ؛ راجِعِ بيتَه: **(أَلَسْتُ بـ: نِعْمَ الْجَارُ ...)**إلخ، راجِعْ معناهُ؛ فإنهُ "في نفسِه شريفٌ، **وأكرمُ الناسِ مَن يُقالُ فيه: نعمَ الجارُ، وأكرمُ الناسِ مَن كان يُؤْلَفُ بيتُه، وهذا الاستفهامُ** الذي بدأ به البيتُ أجرى في هذا المعنى الكريمِ معنًى صار به أنبلَ وأكرمَ؛ وهو أن هذا الوصفَ الكريمَ لا يُنْكِرُه مُنكِرٌ، وأنَّ كلَّ

مَن يتوجَّهُ إليه هذا السؤالُ يُقِرُّ بما فيه، وأنه نعمَ الجارُ، ولا شكَّ أن إقرارَ الناسِ بالفضلِ لذي الفضلِ هو عدلُ فضلِهِم، وأرجحُ في بابِ الذِّكْرِ"[1].

وراجِعْ قولَه: **(وَأَبْقَى لَنَا مَرُّ الحُرُوبِ ورُزْؤُهَا * سُيُوفًا وأدْرَاعًا وجَمْعًا عَرَمْرَمَا)**: تَجِدْ فيهِ أنَّ كلمةَ: (أبْقَى) معَ ضميمةِ فاعلِها ومفعولِها "فيها معنَى أنَّ هذه الحروبَ وهذه الأرزاءَ كانَ الأصلُ ألا تُبْقِيَ لهم سلاحًا ولا رجالًا؛ لو أنه خاضَهَا غيرُهُم، وفي هذا معنَى التميُّزِ، وكأنه لهذا جَرَتْ في نفسِ حسَّانٍ نَشْوةٌ تراها في عُلُوِّ الرنينِ في الشطرِ الثاني، هذا العُلُوُّ الناشئُ مِن هذه المنصوباتِ الأربعِ التي تتابَعَتْ: **(سُيُوفًا وأدْرَاعًا وجَمْعًا عَرَمْرَمَا)**، وهذا ظاهرٌ لمَن يُكرِّرُ هذا الشِّعْرَ، ويُحْسِنُ الاستماعَ إليهِ، وكأنَّ حسَّانًا أرَاد أن يُقدِّم لكَ برهانَ هذه النَّشْوةِ وباعِثَها في نفسِه، فقال: **(أَلَسْنَا نَرُدُّ الكَبْشَ عَنْ طِيَّةِ الهَوَى)**، وهذا مِن معدِنِ قولِه: **(أَلَسْتُ بِـ: نِعْمَ الْجَارُ)**، وكأنه يقولُ: إنَّ رَدْعَ المتغطرسِ الذي تُغْرِيهِ قوتُه بالعَبَثِ الذي لا نرضاهُ أمرٌ لا يُنْكِرُه علينا مُنْكِرٌ، والناسُ جميعًا يُقِرُّونَ لنا بالقدرة على ردِّ مَن يَخْدَعُه غرورُه، فيظنُّ أنه قادرٌ على أن يَنالَ مِنَّا شيئًا، وهذا المعنى كلُّه نَشْوَةٌ تَسْرِي في النَّفْسِ عندَ الإحساسِ به، وما أرْوَعَ القومَ يَرُدُّونَ الكبشَ عن طِيَّةِ الهوى، ولا يَشْفِي غليلَ الحُرِّ إلا هذا، ولِيتَكَ تَعُودُ لنا بقومِكَ يا أبا عبدِ الرحمنِ؛ فقد أكلَتْنا الضبعُ"[2].

فهم يخوضونَ (الحروبَ) – وهي جمعُ كثرةٍ – بمهارةٍ وتفوُّقٍ وتميُّزٍ مِمَّا يَنْتُجُ عنهُ أنْ تَبْقَى لهم السُّيُوفُ الكثيرةُ – وسيوف جمع كثرة –، والأدراعُ الكثيرةُ، ولعلَّه عبَّر بجمعِ القلةِ: (أدراعا)؛ لأنها تهلكُ في الحربِ كثيرًا. ولا يموتُ منهم

---

١ قراءة في الأدب القديم – مقدمة الطبعة الثالثة، ص: (ز/ز).

٢ قراءة في الأدب القديم – مقدمة الطبعة الثالثة، ص: (ط/ط). والجمعُ العرمرمُ: الجمعُ الكثيرُ الموفورُ، وإنما أراد كثرتَهُم، وأنه لا تتنقصهم الحروبُ، ومع كثرة حروبهم فالعتادُ كثيرٌ، والرجالُ جموعٌ عرمرمٌ. ينظر: قراءة في الأدب القديم، ص:١٠٦.

إلا القليلُ؛ لأنه قالَ: (وجمعًا عرمرمَا)، وهذا يعني فيما يعني أنَّ المستعملَ في الحروبِ مِن السيوفِ قليلٌ بالنِّسْبةِ إلى ما لم يُسْتَعْمَلْ منها، وهيَ المُتبقِّيَةُ، والأسيافُ المذكورةُ في قولِه: **(وأسيافُنا يقطُرْن مِن نجدةٍ دمَا)**: هي أسيافُ الحربِ التي استُعْمِلَتْ – وتُسْتَعْمَلُ – فيها، فكانَ هذا الشطرُ مُحقِّقًا ومُؤكِّدًا لقولِه قبلُ: (... سُيُوفًا ...)، وكانَ قولُه: (سُيُوفًا) مُمَهِّدًا لقولِه: (وأسيافُنا يقطُرْن مِن نجدةٍ دمَا)، ومُنْتِجًا لهُ، فكلٌّ منهما في موضعِه هو البلاغةُ التي يعلوُ بها الفخرُ، ويتحقَّقُ مقصودُ الشَّاعِرِ.

وقولُه: (... وكأنَّ حسَّانًا أرَاد أن يُقدِّم لكَ برهانَ هذه النَّشْوةِ ...): يكشِفُ عن بلاغةِ ترتيبِ هذه الأبيات، وأنَّ حركةَ المعنى تقتضي أنْ يجيء قولُه: (ألسنا نرد الكبش ...) مِن بعدِ قولِه: (وأبقى لنا مر الحروب ...)؛ لأنَّ البيت الثاني يكشفُ عن مهارتهم في الحروبِ، والتي منها أنهم يأتُون على قائدِ الكتيبةِ أوَّلًا. وهذا البيتُ: **(وَأَبْقَى لَنَا مَرُّ الحُرُوبِ ورُزْؤُهَا * سُيُوفًا وأدْرَاعًا وجَمْعًا عَرَمْرَمَا)**: وقَعَ مِن بعدِ قولِه: **(أَلَسْتُ بـ: نِعْمَ الجارُ)** إلى قولِه: **(ولم أَكُ سِبًّا في النَّدَامَى مُلَوِّمَا)**(١٧–١٩) بلا خلافٍ في طبعاتِ الديوانِ التي بينَ يَدَيَّ؛ وفي هذا الترتيبِ معَ ضميمةِ التعبيرِ بالإبقاءِ: (وأبْقَى): إشارةٌ إلى أنَّ أحوالَ الكرمِ التي تُفصِّلُها الأبياتُ الثلاثةُ: (١٧–١٩): قد يَعْترِضُها محاولاتٌ خَسِيسَةٌ؛ تريدُ أنْ تَنْهَبَ مِن أموالِ حسَّانٍ وقومِه، وخيراتِ أرضِهِم، وإبلِهِم، وثروتِهِم؛ تلكَ التي يكونُ منها قَرْيُ الناسِ، وإكرامُهُم؛ وذلك بقرينةِ قولِه: **(عنْ طِيَّةِ الهَوَى)**؛ فالقومُ الذينَ منهم حسَّانٌ لم يعتَدُوا على أحدٍ؛ حتَّى يُهَاجَمُوا، ويُعْتَدَى عليهم، بل هم قومٌ كِرَامٌ؛ لهم أعداءٌ؛ هم أعداءُ نجاحِهِم وتفوُّقِهم وتميُّزِهم، المُتغطرسونَ المفسدونَ الذين تُغريهم قوتُهم بالعبثِ والإفسادِ، وكأنَّ حسَّانًا فَرِحٌ بذلكَ البقاءِ في قولِه: **(وَأَبْقَى لَنَا مَرُّ الحُرُوبِ ...)**؛ لأنه به سيَبْقَى جودُهُم وكَرَمُهُم وقَرْيُهُم، وسيَبْقَى عِزُّهُم ومَنَعَتُهُم؛

فما حارَبُوا إلا لأجْلِ ذلك كلِّه[1].؛ ويؤيدُ هذا الفَهْمَ قولُ الشيخِ أبي موسى: "ومِمَّا جوَّدَ فيهِ حسَّانٌ، وتقدَّمَ قولُه: (وذكَر البيتيْنِ: **وَأَبْقَى لَنَا ...، ثم قال)**: ولم يَمْتلِكِ الناسُ شيئًا أعظمَ وأجَلَّ وأقْدَسَ مِن القوَّةِ؛ لأنها هيَ الحارِسُ لكلِّ ما يملِكُون، وإذا ضاعَتِ القوةُ فكلُّ شيءٍ ضائعٌ؛ ليْسَتِ الأرضُ والثَّرْوةُ فحسب، وإنما أيضًا العقائدُ والثَّقافاتُ، يعني: ما هوَ داخِلَ النَّفْسِ الإنسانيَّةِ أيضًا مِمَّا ينطوِي عليهِ ضميرُها"[2].

وراجِعْ أنهم يأْتُون على الكَبْشِ القائدِ السيِّدِ، وأنَّ ذلك إذا تحقَّقَ كان قتلُ مَن دونَه أَوْلى وأسهلَ وأسرعَ. ولاحِظْ أنه قال: **(أَلَسْنَا نَرُدُّ الكَبْشَ عَنْ طِيَّةِ الهَوَى)**، وأنه لم يقل: **ألسنا نقتلُه**؛ لأن غرضَهُم ليس قَتْلَ الناسِ، وإنما هم حُماةٌ للأرضِ والعِرْضِ والسِّلْمِ والسَّلامِ والأمنِ والأمانِ والرخاءِ والعِزَّةِ؛ ألم يقُل: **(نَمْنَعْ حَوْضَنَا أَنْ يُهَدَّمَا)**؟، وهم لذلك يَرْقُبُون نَوَايا مَن تغرُّه قوتُه في أفعالِه، فمَن تنطوي نفسُه على سوءٍ لهم وإرادةِ نَيْلٍ منهم قتلوه؛ لردِّه عن ذلك، لا لغرضِ الانتقامِ والتَّشفِّي والعصبيَّة والسيطرةِ والاستيلاءِ على المغانمِ، كأنَّ في هذا التعبيرِ: **(أَلَسْنَا نَرُدُّ)** معنَى أنهم يحاولونَ ردَّهُ بالسِّلْمِ أولًا، فإذا لم ينتهِ حارَبُوه، وقتَلُوه، فهم قومٌ ليسوا أهلَ دِماءٍ يحبُّونَ القتلَ والهمجيَّةَ والعنفَ، فسيوفُهُم ليْسَتْ بالمشهورةِ المُسَلَّطَةِ مع أوَّلِ آيةٍ مِن آياتِ الخصومةِ حتى يَظُنَّ ظانٌّ أنها قليلةٌ، وأنهم قومٌ ضعيفُو العَتادِ قليلُو الأسيافِ، إنهم فُرْسَانٌ أشرافٌ وسادةٌ ومُلُوكٌ؛ ولهذا قال حسَّانٌ عَقِبَ بيتِ: **(أَلَسْنَا نَرُدُّ الكَبْشَ ...)** – على الترتيبِ الذي اختارَهُ الشيخُ أبو موسى –: **(وَكائِنْ تَرَى مِنْ سَيِّدٍ ذِي مَهَابَةٍ * أَبُوهُ أَبُونَا، وَابْنُ أُخْتٍ مُكَرَّمَا)**،

---

١ والشيخَ أبو موسى في نصِّه السابقِ ذكرُه كشَف عن الربطِ الكائنِ بينَ المعنى وما وراءه وبينَ عُلُوِّ الرنينِ في الشطر الثاني المستفادِ مِن تتابُعِ المنصوباتِ الأربعةِ؛ لأنها مفرداتٌ جعَلَتِ النغمَ الموسيقيَّ يتقطَّعُ ويَظْهَرُ وكأنه دَقَّاتُ طُبُولِ الفرحِ بالانتصارِ.

٢ قراءة في الأدب القديم – مقدمة الطبعة الثالثة – ص: (ط/ط).

والسَّيِّدُ ذو المَهابةِ لا يقتلُ، ولا يسجنُ، ولا يُحرِّقُ، ولا يُرَمِّلُ النساءَ، ولا يستولي على الأرضِ، ولا يَهْتِك العِرْضَ، ولا يعشقُ الدماءَ، ولا يُشْهِرُ السيوفَ في وجوهِ بني جِلْدَتِهِ!!!.

فهل ترَى أنَّ ذلك هو السببُ البلاغيُّ السياقيُّ للتعبيرِ بجَمْعِ القِلَّةِ: (الأسياف) في موضِعِ جَمْعِ الكثرةِ: (السيوف)؟، نعم، ومِمَّا يُؤنِسُ بذلك: أنه ذكَر الدَّمَ في نَظْمِ المعنى الذي ذكَر فيه: (الأسياف)، فقال: **(وَأَسْيَافُنَا يَقْطُرْنَ مِن نَجْدَةٍ دَمَا)**، إن غايةَ ما يُصوَّرُ به معنَى الشجاعةِ والنجدةِ والقوةِ وما جرى في هذا الطريقِ مِن المعنى في سياقِ الشَّاعرِ: جمعُ القِلَّةِ: (الأسياف)، والمفردُ: (الدمُ)، والتعبيرُ بـ: (يقطرن)؛ فلو عُبِّرَ بجَمْعِ الكثرةِ: (السيوف) مع الاقترانِ بذِكْرِ الدَّمِ – سواءٌ عُبِّرَ بـ: (يقطرن)، أو بـ: (يجرين) –: لأفْهَم أنهم قومٌ أهلُ دَمٍ، بل هُم أهلُ دِمَاءٍ، فكيف إذا عَبَّر به مع الجمعِ: الدماء؟، فكيفَ يكونُ الحالُ إذا انضمَّ لذلك كلِّه التعبيرُ بـ: (يجرين)، أو: (يسلن)، أو: (يفضن)؟. وكلُّ هذا لا يتناسَبُ البتةَ معَ قولِه مِن قبلُ: **{أَلَسْنَا نَرُدُّ الكَبْشَ عَنْ طِيَّةِ الهَوَى}**: في نُورِ ما ذكرتُ – ومما لم أذْكُرْ – مِن ظِلالِ التعبيرِ بالرَّدِّ وطِيَّةِ الهوى، وإيحاءاتِهِمَا. وهل مَن تُؤْلَفُ بيوتُهم يكونونَ أهلَ دمٍ أو دماءٍ؟، وهل مَن لهم حاضرٌ فَعْمٌ وبادٍ كأنه شماريخُ رضوى عزةً وتكرُّمًا – يكونونَ كذلك؟. ولا يتلاءَمُ بحالٍ معَ قولِه مِن قبلُ: **(بِكُلِّ فَتًى عَارِي الأَشَاجِعِ لَاحَهُ * قِرَاعُ الكُمَاةِ يَرْشَحُ الْمِسْكَ وَالدَّمَا * إِذا اسْتَدْبَرَتْنَا الشَّمْسُ دَرَّتْ مُتُونَنَا * كَأَنَّ عُرُوقَ الْجَوْفِ يَنْضَحْنَ عَنْدَمَا)**؛ فلَمَّا كانوا فرسانَ الشرفِ والعزةِ والكرامةِ والسِّلْمِ والأمانِ: قَرَنَ بينَ ساحةِ القتالِ في قولِه: **(مَتَى مَا تَزِنَّا مِنْ مَعَدٍّ بِعُصْبَةٍ * وغَسَّانَ نَمْنَعْ حَوْضَنَا أَنْ يُهَدَّمَا * بِكُلِّ فَتًى عَارِي الأَشَاجِعِ لَاحَهُ * قِرَاعُ الكُمَاةِ)** – وبينَ ساحةِ الشرفِ والكرمِ والنعمةِ والسِّلْمِ في قولِه: **(يَرْشَحُ الْمِسْكَ وَالدَّمَا * إِذا اسْتَدْبَرَتْنَا الشَّمْسُ دَرَّتْ مُتُونَنَا * كَأَنَّ عُرُوقَ الْجَوْفِ يَنْضَحْنَ عَنْدَمَا)**.

يقولُ الشيخُ أبو موسى: "ولَمَّا ذكَر قراعَ الكتائبِ ونزيفَ الدَّمِ: قرَن هذه الوحشيَّةَ برَشْحِ المِسْكِ: **(يَرْشَحُ الْمِسْكَ وَالدَّمَا)**، وقدَّمَه على الدَّمِ؛ **فدلَّ على شرفِهِم الذي صارَتْ به دماؤُهُم مِسْكًا، ثم رجَع إلى السِّلْمِ، وأكَّدَ معنى هذا الشرفِ والنعمةِ والتَّميُّزِ، وأن الشمسَ إذا أدرَّت متونهم: (كَأَنَّ عُرُوقَ الْجَوْفِ يَنْضَحْنَ عَنْدَمَا)، أرأيتَ هذا الفخرَ الرائعَ، وهذه القوةَ الغالبةَ التي يَصْحَبُكَ فيها المِسْكُ والعَنْدَمُ؟**، هذا غيرُ كلامِ الفرزدقِ الذي يَضَعُ أمامَكَ الأشلاءَ، والدماءَ، والرجالَ المغلولينَ بالسَّلاسِلِ: **{مَكْتُوف اليدَيْنِ ومُزْعَفُ}**، ولَمَّا أرادَ حسَّانٌ أن يُشِيرَ إلى حِدَّة البأسِ، والتي لا بُدَّ منها في الأقوامِ؛ حتى يَدْفَعُوا بها أهلَ الشَّرِّ: رمَز إلى هذا رَمْزًا خفيًّا بذِكْرِ: (مُحَرِّقٍ) في قولِه: **(وَلَدْنَا بَنِي الْعَنْقَاءِ وَابْنَي مُحَرِّقٍ)**"[1]. ولهذا نطَق الشيخُ أبو موسى بهذا الحكمِ النقديِّ المُوَفَّقِ: "**وقصيدةُ حسَّانٍ في تقديري أفضلُ من قصيدةِ الفرزدقِ التي أنشَدَها**، معَ أن هذه الفائيَّةَ مِن أفضلِ شعرِه، وربما لا يُنازعُها إلا لاميَّتُه:

إِنَّ الذي سَمَكَ السَّمَاءَ بَنَى لَنَا بَيْتًا دَعَائِمُهُ أَعَزُّ وَأَطْوَلُ

وفي قصيدةِ حسَّانٍ أبياتٌ لا أجِدُها في المُعلَّقاتِ"[2].

إنَّ الحروبَ التي يخوضُهَا قومُ حسَّانٍ مع ضميمةِ أنهم ليسوا بأهلِ دمٍ وأشْلاءٍ وقَتْلٍ: تُؤثِّرُ على كرمِهِم وجُودِهِم الذي هو مَقْصِدُ مَقَاصِدِهِم، تُؤثِّرُ عليه؛ وهُمْ في حالةِ الحربِ خُصُوصًا تأثيرًا قويًّا، وهم في حالةِ السِّلْمِ نوعَ تأثيرٍ، فكأن القَرْيَ الذي يكونُ منهم للناسِ كلِّ الناسِ وهم في هذه الحروبِ خصوصًا وفي غيابِ هذه الحروبِ عمومًا: قَرْيٌ قليلٌ ضعيفٌ؛ بالنسبةِ إلى ما يُمْكِنُ أن يكونَ منهم إذا لم تكن حروبٌ، **والتعبيرُ بجَمْعِ القِلَّةِ: (الجفناتُ): يشيرُ إلى هذا**

١قراءة في الأدب القديم، ص:١١١.

٢قراءة في الأدب القديم، ص:١٠١.

المعنى الجليلِ في لُطْفٍ، ولذلك نظَم المعنى في طريقِ القصرِ بتقديمِ المسندِ على المسندِ إليه، فقال: **(لَنَا الْجَفَنَاتُ ...)**؛ أي: لأننا قومٌ تُؤَثِّرُ على كرمِنَا وقَرْيِنَا الحروبُ التي ندخلُها. وقولُه: **(وَأَسْيَافُنَا يَقْطُرْنَ مِن نَجْدَةٍ دَمَا)**: معطوفٌ على قولِه: **(الْجَفَنَاتُ الْغُرُّ يَلْمَعْنَ بالضُّحَى)**، فهم وَحْدَهُم أسيافُهُم تَقْطُرُ دَمًا بهذه القِلَّةِ، أي: ليس ذلك إلا لهم؛ لِمَا ذكرتُ مِن قبلُ؛ مِمَّا يدلُّ عليه قولُه: **(يَرْشَحُ الْمِسْكَ وَالدَّمَا)**، والبيتُ الذي بعْدَهُ، والقَرْنُ بينَ مقامِ معنَى الكرمِ ومقامِ معنى الشجاعةِ في البيتِ: **(لَنَا الجفناتُ ...)**: يُؤْنِسُ بهذا الفَهْمِ، ويؤيِّدُهُ.

وضَعِ البيتَ: **(لَنَا الْجَفَنَاتُ الْغُرُّ يَلْمَعْنَ بالضُّحَى * وَأَسْيَافُنَا يَقْطُرْنَ مِن نَجْدَةٍ دَمَا)** بإزاءِ البيتِ الذي قبلَه مباشرةً: **(نُسَوِّدُ ذا المالِ القليلِ إذا بَدَتْ * مُرُوءَتُهُ فِينَا وإنْ كانَ مُصْرِمَا)**: تَفْهَمْ أنَّ حسَّانًا يريدُ أن يقولَ في البيتِ: **(لَنَا الْجَفَنَاتُ الْغُرُّ يَلْمَعْنَ بالضُّحَى * وَأَسْيَافُنَا يَقْطُرْنَ مِن نَجْدَةٍ دَمَا)**: إننا قومٌ سادةٌ أشرافٌ مُلُوكٌ أهلُ مُرُوءةٍ **وإن قَلَّتْ حِفَاتُنَا وسُيُوفُنا**؛ بسببِ شدةِ كثرةِ العطاءِ والقَرْيِ؛ لأنَّنا نسوِّدُ ذا المالِ القليلِ بأنْ نصِلَه بالمالِ الكثيرِ، أو بسببٍ آخَرَ، فنحنُ سادةٌ أشرافٌ مُلُوكٌ على الدوامِ وفي كلِّ حالٍ، فليس لأحدٍ أن يجهَل علينا، فيُقَلِّلَ مِن شأنِنَا؛ بسببِ ذلك؛ لأننا نفعلُ ذلك معَ ذي المالِ القليلِ المُصْرِمِ الفقيرِ؛ نُسوِّدُه، أي: نجعلُه سيِّدًا غنيًّا؛ بدليلِ قولِه: **(وندمانِ صِدْقٍ تُمْطِرُ الخيرَ كفُّه * إذا راحَ فَيَّاضَ العَشِيَّاتِ مُكْرَمَا * وَصَلْتُ بِهِ كَفِّي ...)**. **فأشارَ حسَّانٌ إلى هذا المعنى الجليلِ الشريفِ بالتعبيرِ بجَمْعِ القِلَّةِ: (الجفناتُ)**، وداوِمِ النظرَ في هذه الأُسْرَةِ: **(ذا المالِ القليلِ – مُصْرِمَا – الْجَفَنَاتُ – أَسْيَافُنَا)**.

ولَمَّا كانَ (المُتكلِّمُ بلسانِ قومِه/الشاعرُ) مِن قومٍ لا يحبونَ القتلَ والحربَ والدَّمَ لذاتِها، بل مقصدُ مقاصدِهِم القَرْيُ، والكرمُ، وأن تُمْطِرَ الخيرَ أَكُفُّهُم: كانَ معنَى الفخرِ الشعريُّ في ذِرْوتِه في القصيدةِ: خارِجًا في لغةٍ يعمُّهَا هدوءُ الكرامِ السَّادةِ الأشرافِ، ولم يخلُ بيتُ هذا المعنى مِن ذِكْرٍ لقوتِهِم واستحضارٍ لها، وهي قوةٌ عظيمةٌ، ولكنه ذِكْرٌ لطيفٌ، ومُوجَزٌ، يقولُ الشيخُ أبو موسى: "... وحُسْنَ

التَّأنِّي لآداءِ المعنى الأُمِّ في القصيدةِ: **(مَتَى مَا تَزِنَّا مِنْ مَعَدٍّ بِعُصْبَةٍ * وغَسَّانَ نَمْنَعْ حَوْضَنَا أنْ يُهَدَّمَا)**، **وقد بلَغ الغايةَ بهذه اللغةِ الهادئةِ، وهذا المجازِ السهلِ: (نَمْنَعْ حَوْضَنَا أنْ يُهَدَّمَا)، وقَارَبَ نفْسَكَ بهذا النَّفَسِ الهادئِ: وهو موضِعُ الجَلْجَلَةِ وعُلُوِّ الصوتِ وضخامَةِ اللفظِ**. ثم **إنه أدْخَلَ في الكلامِ شيئًا مِن القوةِ**؛ لَمَّا ذكَر غسَّانَ التي هي مِن اليمانيَّةِ، ولم يكتفِ بمَعَدٍّ الذين هم عربُ الشمالِ، فحوضُهُم لا تهدمُه مَعَدٌّ بكلِّ قبائلِه، ولا تهدمُه غسَّانُ الذين هم ملوكُ الشَّامِ بكلِّ قوَّتِها"[1].

إنَّ الأبياتَ المتحدِّثةَ عن كرمِهم صراحةً أكثرُ مِن الأبياتِ المُتحدِّثةِ عن شجاعتِهم وقوَّتِهم في الحربِ صراحةً أيضًا؛ فضْلًا عن أحدَ قِسْمَي المعنى أصلٌ، والثاني مُكمِّلٌ ومُتمِّمٌ له؛ والشاعرُ افتتحَ حديثَه في الأبياتِ التي هيَ صُلْبُ القصيدةِ بهذا القِسْمِ الأكثرِ الأكبرِ، وذلكَ يبدأُ مِن الشطرِ الثاني في البيتِ السادس عشر: (١٦)، وهذا البيتُ مِن تمامِ ما قبلَه، وفاتِحٌ البابَ لِمَا بعدَه؛ فالشطرُ الأولُ: **(سَأُهْدِي لَهَا فِي كُلِّ عَامٍ قَصِيدَةً)**: مِن تمامِ الحديثِ عن الصاحبةِ ورِحْلتِهَا. والشطرُ الثاني: **(وَأَقْعُدُ مَكْفِيًّا بِيَثْرِبَ مُكْرَمَا)**: بدايةُ حديثِ حسَّانٍ عن نفسِه وعن قومِه. ثم أتَى بحديثٍ عن الحربِ في بيتيْنِ اثنيْنِ:(٢٠-٢١): **(وَأَبْقَى لَنَا مَرُّ الحُرُوبِ ورُزْؤُهَا * سُيُوفًا وأدْرَاعًا وجَمْعًا عَرَمْرَمَا * أَلَسْنَا نَرُدُّ الكَبْشَ عَنْ طِيَّةِ الهَوَى * ونَقْلِبُ مُرَّانَ الْوَشِيجِ مُحَطَّمَا)**. وقد سبقَهُما حديثٌ صريحٌ عن الكرمِ والضيافةِ والنعمةِ والعطاءِ في ثلاثةِ أبياتٍ.

ثم عادَ حسَّانٌ إلى الحديثِ عن الكرمِ في أربعةِ أبياتٍ:(٢٣-٢٦): **(وَإِنَّا لَنَقْرِي الضَّيْفَ إِنْ جاءَ طارِقًا * مِنَ الشَّحْمِ مَا أمْسَى صَحِيحًا مُسَلَّمَا * إِذَا اغْبَرَّ آفَاقُ السَّماءِ، فأَصْبَحَتْ * كَأَنَّ عَلَيْهَا ثَوْبَ عَصْبٍ مُسَهَّمَا * حَسِبْتُ**

١قراءة في الأدب القديم، ص:١١٠-١١١.

قُـدُورَ الصَّـادِ حَـوْلَ بُيُوتِنَـا * قَنَابِـلَ دُهْمًـا فـي المَحَلَّـةِ صُـيَّمَا * يَظَـلُّ لَـدَيْهَا الْوَاغِلُونَ، كَأَنَّمَا * يَنُوبُونَ بَحْرًا مِنْ سُمَيْحَةَ مُعْلَمَا). وقد مهَّدَ له بالبيتِ:٢٢: **(وَكائِنْ تَرَى مِنْ سَيِّدٍ ذِي مَهَابَةٍ * أَبُوهُ أَبُونَا، وَابْنُ أُخْتٍ مُكَرَّمَا)**. وهذا البيتُ يصحُّ أن يكونَ مِن تمامِ ما قبلَه؛ فإن مَن تُبْقِي لهم الحروبُ سيوفًا وأدراعًا وجمعًا عرمرمًا، ومَن يردُّون الكبشَ عن طِيَّةِ الهوى، ومَن يَقْلِبُون مرانَ الوشيجِ محطمًا: قومٌ ذَوُو مهابةٍ لا محالةَ، ويُنْتِجُون السادةَ الأشرافَ لا محالةَ أيضًا. ويصحُّ – دونَ تعانُدٍ – أن يكونَ تمهيدًا لما بعدَه، وأن يكونَ ما بعدَه مِن تمامِه وتفصيلًا له؛ فهم أهلُ مَهَابةٍ؛ لأنهم أهلُ عطاءٍ كما أنهم أهلُ فروسيَّةٍ، فليسوا ذوي مهابةٍ؛ لأنهم أهلُ فروسيَّةٍ وبأسٍ في الحربِ فقط، بل لذلك، ولأن القَرْيَ في طِباعِهِم، فهذا البيتُ كالفاصلةِ التي بلَغَت بالمعنى قبلَها أقصى ما يُمكنُ، فتحَقَّقَ له شَرَفُ المعنى، وفتحتِ البابَ لما بعدَها، وحقَّقَتْ له نوعًا مِن التشويقِ، والتَّمكُّنِ في النَّفْسِ.

ثم عاد بالحديثِ الصريحِ عن الحربِ والشجاعةِ والذَّوْدِ عن الحياضِ في بيتيْنِ اثنيْنِ: (٢٨–٢٩): **(مَتَى مَا تَزِنَّا مِنْ مَعَدٍّ بِعُصْبَةٍ * وغَسَّانَ نَمْنَعْ حَوْضَنَا أَنْ يُهَدَّمَا * بِكُلِّ فَتَى عَارِي الأَشَاجِعِ لَاحَهُ * قِرَاعُ الكُمَاةِ يَرْشَحُ الْمِسْكَ وَالدَّمَا)**. وقد مهَّدَ له بالبيت: (٢٧): **(لَنَا حاضِرٌ فَعْمٌ وبَادٍ كَأَنَّهُ * شَمَارِيخُ رَضْوَى عِزَّةً وتكَرُّمَا)**. والبيتانِ مِن تمامِه، وتفصيلٌ له، كما أنه نِتاجُ ما قبلَه، ومِن تمامِه، وبه بلَغ المعنى قبلَه أقصى ما يُمكنُ، فتحقَّقَ له شرَفُ المعنى. فهذا البيتُ:٢٧. كالبيتِ:٢٢. فالبيتانِ أخَوَانِ، ولبِنَتانِ مُتكامِلتانِ؛ فمَن لهم حاضرٌ فعمٌ ... إلخ: هم الذين هم سادةٌ، ولهم مهابةٌ في نفوسِ العبادِ، والذين لهم هذه المهابةُ ومِن شأنهم إنتاجُ السادةِ المنتشرينَ في كلِّ مكانٍ لا بُدَّ أن يكونَ لهم حاضرٌ فعمٌ وبادٍ ... إلخ.

وأما البيتُ: (٣٠): **(إذا اسْتَدْبَرَتْنَا الشَّمْسُ دَرَّتْ مُتُونَنَا * كَأَنَّ عُرُوقَ الْجَوْفِ يَنْضَحْنَ عَنْدَمَا)**: فمعناهُ يجري في السِّلْمِ والحربِ. وأما البيتُ: (٣١):

(وَلَدْنَا بَنِي الْعَنْقَاءِ وَابْنَي مُحَرِّقٍ * فَأَكْرِمْ بِنَا خَالًا، وأَكْرِمْ بِنَا ابْنَمَا): فحديثٌ عن الكرمِ والشجاعةِ مَعًا، وراجِعْ ما قلتُه في تخريجِ البيتِ على حذفِ المشبهِ وأداةِ التشبيهِ التي تُقدَّرُ بمِثْل تفْهَم ذلك؛ فإن مِن الصفاتِ المشتركةِ ما يتعلقُ بالكرمِ، ومنها ما يتعلقُ بالشجاعةِ، ومنها ما يتعلقُ بغيرهما. وقولُه: **(فَأَكْرِمْ بِنَا خَالًا)**: يتَّصِلُ بالأصلِ الذي هو المشبَّهُ بهِ، ويتَّصِلُ بالفرعِ الذي هو المُشَبَّهُ قولُه: **(وأَكْرِمْ بِنَا ابْنَمَا)**. و: (ما) في قوله: (ابنما): زائدة، ولَمَّا كانَتْ تُستعمل علامةً للجمعِ فإنَّ لها هنا ظِلَّ التعظيمِ والتفخيمِ؛ قرينةِ سياقِ معنَى البيتِ.

وأما البيتُ: (٣٢): **(نُسَوِّدُ ذا المالِ القليلِ إذا بَدَتْ * مُرُوءَتُهُ فِينَا وإِنْ كانَ مُصْرِمَا)**: فحديثٌ عن الجُودِ والكرمِ مِن كلِّ جهةٍ، وحديثٌ الكرمِ والشجاعةِ مِن جهةٍ؛ فلا يجعلُ أحدًا سيِّدًا إلا السيِّدُ، والسيِّدُ عندَ العربِ ليس المُتفوِّقَ في الشجاعةِ والقتالِ في الحروبِ فقط، وإنما المتفوقُ في القَرْي والكرمِ أيضًا، بل إن الكرمَ هو سببُ السيادةِ الدائمُ والباقي؛ لأن الحروبَ قد تقِلُّ؛ حتى تغيبَ تمامًا. وأما البيتُ: (٣٣): **(لَنَا الْجَفَنَاتُ الْغُرُّ يَلْمَعْنَ بالضُّحَى * وَأَسْيَافُنَا يَقْطُرْنَ مِن نَجْدَةٍ دَمَا)**: فظاهرٌ كونُه في الاثنيْنِ. وأما البيتُ: (٣٥): **(وكلُّ مَعَدٍّ قَدْ جَزَيْنَا بِصَنْعَةٍ * فَبُؤْسِيْ بِبُؤْسَاهَا، وبِالنُّعْمِ أَنْعُمَا)**: فكذلك. وأما البيتُ: (٣٤): **(أَبَى فِعْلُنَا الْمَعْرُوفَ أَنْ يَنْطِقَ الْخَنَا * وقَائِلُنَا بالعُرْفِ إِلَّا تَكَلَّمَا)**: فهو أقربُ إلى السِّلْمِ وإلى مقامِ الكرمِ؛ مُسْتأْنِسِينَ في ذلكَ بمعنى: (المعروف)، و: (العرف)، مع ضميمةِ نَصِّ ابنِ فارسٍ في مادَّتِهما. وقد جرَيْتُ في ذِكْرِ الأبياتِ بهذا الترتيبِ على الترتيبِ الذي اختارَه الشيخُ أبو موسى.

***

= ويتناغَى معَ صيغةِ: (الجفنات)؛ مِن جهةِ القِلَّةِ فيها – فالدَّاعِي إلى الغُرِّ واللَّمَعَانِ والضُّحَى نَفْسُ الدَّاعِي إلى صيغةِ: (الجفنات)؛ مِن هذه الجهةِ–:

(١) **التعبيرُ بـ: (الْغُرُّ)**؛ لأنَّهُ يُحقِّقُ معنَى التَّمَيُّزِ والتَّفَوُّقِ في: (الجفنات)؛ وما كانَ كذلكَ كانَ معروفًا مشهورًا لا محالةَ؛ ففي قولِه – على روايةٍ أُخْرَى حَكَاهَا الصُّولِيُّ –: **(قال: ويُرْوَى أنَّ النابغةَ قالَ لهُ: أقللتَ أسيافَكَ، ولَمَّعْتَ جفانَكَ. يريدُ قولَه: (لَنَا الجفناتُ الغُرُّ)، والغُرَّةُ لَمْعةُ بيَاضٍ في الجفنةِ؛ فكأنَّ النابغةَ عابَ هذهِ الجفانَ، وذهَب إلى أنَّه لَوْ قالَ: (لنَا الجفناتُ الْبِيضُ)، فجعلَها بِيضًا: كانَ أحْسَنَ. فلَعَمْرِي: إنَّه أحْسَنَ في الجفانِ، إلا أنَّ الغُرَّ أَجَلُّ لَفْظًا مِنَ الْبِيضِ)**: زيادةُ تفصيلٍ تتعلَّقُ بوصفِ الجفناتِ بالغُرِّ، والنابغةُ يرَى أنَّ الوصفَ بالبيضِ أبلغُ؛ أي: مِن المبالغةِ، ومِن البلاغةِ. لكنَّ الصُّوليَّ يُخالِفُه في ذلكَ؛ وإنْ وافقَهُ في الذَّهابِ إلى أنَّ الجفانَ أبلغُ مِن الجفناتِ؛ أي: مِن المبالغةِ ومِن البلاغةِ أيضًا؛ فالوصفُ بالبيضِ صَرِيحٌ، وهو دالٌّ على قوَّةِ البياضِ، أي: قوةِ اتصافِ الجفناتِ به، كما أنَّ (الجفانَ) جَمْعَ الكثرةِ أقوى مِن (الجفناتِ) جَمْعِ القِلَّةِ، أو المُلحَقِ بأوزانِ القِلَّةِ.

والحقُّ ما قالَهُ الصوليُّ: (إلا أنَّ الغُرَّ أَجَلُّ لَفْظًا مِنَ الْبِيضِ)؛ لأنَّ النابغةَ نظَر إلى ضَعْفِ معنى البياضِ فقط على التعبيرِ بـ: (الغُرِّ)، وأبْصَرَ أن الصوابَ أنْ يكونَ معنَى البياضِ قويًّا؛ لأنَّ المقامَ للفخرِ، وليَحْصُلَ التَّناسُبُ في الظاهرِ بينَ البِيضِ وبياضِ (الشَّحْمِ) المذكورِ في قولِ حسَّانٍ: **(وإنَّا لنقري الضيفَ؛ إنْ جاءَ طارِقًا * مِن <u>الشَّحْمِ</u> ما أمْسَى صحيحًا مُسلَّمَا)**. والأَعْلى في ذاتِ الوصفِ هو المُناسِبُ للمقامِ؛ بناءً على ظاهرِه. لكنَّ التعبيرَ بـ: (الغُرُّ) أوسَعُ معنًى مِن التعبيرِ بـ: (البِيضُ)، وما تحتَه مِن المعنى أليقُ بفخرِ حسَّانٍ وما يَسْتَوْجِبُه، أفيكونُ الإبلاغُ في معنى وصفٍ واحدٍ أبلغَ – وهذا مِن المبالغةِ والبلاغةِ معًا – مِن ذِكْرِ أكثرَ مِن معاني أوصافٍ في لفظٍ واحدٍ؟!، وذلكَ المُفَضَّلُ تفسيرُ أنَّ:

(الغُرُّ) أجلُّ لفْظًا مِن: (البِيضِ)، أي: أنَّ لفظَ (البِيض) يتحمَّلُ معنًى واحدًا، وأنَّ لفظَ: (الغُرّ) يتحمَّلُ أكثرَ مِن معنًى، والألفاظُ هيَ أوْعِيَةُ المعاني، قال ابنُ فارسٍ: "الْغَيْنُ وَالرَّاءُ أُصُولٌ ثَلَاثَةٌ صَحِيحَةٌ: **الْأَوَّلُ الْمِثَالُ، وَالثَّانِي النُّقْصَانُ، وَالثَّالِثُ الْعِتْقُ وَالْبَيَاضُ وَالْكَرَمُ** ... وَأَمَّا النُّقْصَانُ فَيُقَالُ: غَارَتِ النَّاقَةُ تُغَارُ غِرَارًا؛ إِذَا نَقَصَ لَبَنُهَا. وَفِي الْحَدِيثِ: «لَا غِرَارَ فِي صَلَاةٍ وَلَا تَسْلِيمٍ». فَالْغِرَارُ فِي الصَّلَاةِ: أَلَّا يُتِمَّ رُكُوعَهَا أَوْ سُجُودَهَا. وَالْغِرَارُ فِي السَّلَامِ: أَنْ يَقُولَ: السَّلَامُ عَلَيْكَ، أَوْ يَرُدَّ، فَيَقُولُ: وَعَلَيْكَ. وَمِنْهُ الْغِرَارُ، وَهُوَ النَّوْمُ الْقَلِيلُ ... وَالْأَصْلُ الثَّالِثُ: الْغُرَّةُ. وَغُرَّةُ كُلِّ شَيْءٍ: أَكْرَمُهُ. وَالْغُرَّةُ: الْبَيَاضُ. وَكُلُّ أَبْيَضَ أَغَرّ ..."[1].

(أ) فما المانعُ مِن أنْ تكونَ (الجفناتُ) التي هيَ أوَانٍ أو قصَعَاتٌ للضيوفِ والطعامِ – على مِثالٍ واحدٍ؛ دلالةً على الكرمِ والجُودِ وحُسْنِ الرعايةِ والعنايةِ والخدمةِ والقِرْي؛ فليس لبعضِ الآكلينَ جفناتٌ تخصُّهُم ليسَتْ لبعضٍ آخَرِينَ، أي: أنَّه لا تفاوُتَ عندَ حسَّانٍ وقومِه بينَ ضيوفِهِم؛ حتى ظهَر ذلك في الجفناتِ، فلا فرقَ عندهم بين غنيٍّ وفقيرٍ، وقريبٍ وغريبٍ، ومَدْعُوٍّ وواغِلٌ، والشاعرُ قالَ مِن قبلُ: **(يَظَلُّ لَدَيْهَا الْوَاغِلُونَ، كَأَنَّمَا * يَنُوبُونَ بَحْرًا مِنْ سُمَيْحَةَ مُعْلَمَا)**، والواغلونَ جمعُ واغلٍ، والواغلُ: هو الذي يدخلُ على القومِ، فيأكلُ معَهُم مِن غيرِ أن يُدْعَى، ويشربُ مِن غيرِ أن يُدْعَى، ولا يكونُ ذلك إلا في بيوتِ الكرماءِ[2]. وقالَ: **(نُسَوِّدُ ذا المالِ القليلِ؛ إذا بَدَتْ * مُرُوءَتُهُ فينا؛ وإنْ كانَ مُصْرِمَا)**؛ فهذا البيتُ قرينةٌ قويَّةٌ تؤنِسُ بهذا الفَهْمِ، وتُقَوِّيهِ، وكذلكَ قولُه: **(وندمانِ صِدْقٍ تُمْطِرُ الخيرَ كَفُّه ... وصَلْتُ به كَفِّي،**

١معجم مقاييس اللغة ٤/٣٨٠-٣٨٢. مادة: غَرَّ.

٢ينظر هذا التفسير في: الديوان ص:١٢٩. وقراءة في الأدب القديم، ص:١٠٦.

وخالَطَ شِيمَتِي ...)؛ فهم يُحِبُّون أنْ يكونَ الناسُ أحرارًا أسْيَادًا، لا عبيدًا، ومَن يجعلُ الفقيرَ المحتاجَ سيِّدًا فهو سيِّدُه لا محالةَ؟.

(ب) **وما المانعُ مِن أنْ يكونَ في الوصفِ بـ: (الْغُرُّ)**: إشارةٌ إلى أنَّ هذهِ (الجفنات) تنقصُ مِن الشَّحْمِ؛ لكثرةِ الضيوفِ الآكِلينَ؛ بدليلِ أنَّ بيوتَهُم مألوفةٌ على الاستمرارِ والتَّجدُّدِ؛ حالَ كونِهم: **(كذِي العُرْفِ؛ ذا مالٍ كثيرٍ، ومُعْدِمَا)**، وبدليلِ قولِهِ: **(حَسِبْتُ قُدُورَ الصَّادِ حَوْلَ بُيُوتِنَا * قَنَابِلَ دُهْمًا فِي المَحَلَّةِ صُيَّمَا * يَظَلُّ لَدَيْهَا الْوَاغِلُونَ، كَأَنَّمَا * يَنُوبُونَ بَحْرًا مِنْ سُمَيْحَةَ مُعْلَمَا)**؛ فـ: (قُدُورُ الصَّادِ): هوَ قُدُورُ النَّحاسِ الأصفرِ الجيِّدِ، والقنابِلُ جمعُ قَنْبُلَةٍ بفتحِ القافِ؛ هيَ الجماعةُ مِن الخيلِ، والصُّيَّمُ جمعُ صائِمٍ، والخيلُ الصُّيَّمُ هيَ الخيلُ القيامُ؛ يصِفُ حسَّانٌ القُدُورَ، وأنها كجماعاتِ الخيلِ الدُّهْمِ القيامِ؛ يريدُ كثرتَها وضَخَامتَها[1]. وجوهرُ معنَى الفخرِ قولُه: (حولَ بيوتِنَا). وحالُ الواغلينَ لدَى هذه القُدُورِ كحالِ الذينَ يُوافُونَ بَحْرًا مُفْعَمًا[2]. ففي ذلكَ عنصرُ الكثرةِ، والتَّزاحُمِ، وعنصرُ غزارةِ الطعامِ والشَّرابِ، والطعامُ يَنْقُصُ في الجفناتِ، ويَزِيدُ؛ على جهةِ التَّجدُّدِ؛ فلهذا قال: (يظلُّ)، و: (يُوافُون)؟.

(ج) ثم هذهِ (الجفناتُ) بَعْدَ ذلك: **عتيقةٌ، بِيضٌ، تدلُّ على كرمِ أصحابِهَا**، وحسَّانٌ قالَ: **(يَظَلُّ لَدَيْهَا الْوَاغِلُونَ، كَأَنَّمَا * يَنُوبُونَ بَحْرًا مِنْ سُمَيْحَةَ مُعْلَمَا)**؛ "وبئرُ سميحةَ بئرٌ بالمدينةِ، كثيرُ الماءِ؛ وأنهم مِن عِرْقٍ كريمٍ، ليسوا

١ينظر تفسير عناصرِ هذا التشبيهِ في: الديوان بشرح عبد الرحمن البرقوقي، ص:٣٧٠. وقراءة في الأدب القديم، ص:١٠٦.

٢أي: كثيرًا مُمْتَلِئًا، وسَمِيحةُ بِئْرٌ بالمدينةِ، معروفةٌ بغزارةِ مائها، ويُذْكَرُ كثيرًا في شِعْرِ شعراءِ المدينةِ. ينظر: الديوان بشرح عبد الرحمن البرقوقي، ص:٣٧٠. وقراءة في الأدب القديم، ص:١٠٦.

مُمْتَهَنِينَ"[1]. فهل تكونُ: (الجفناتُ) بذلكَ كلِّهِ مُتميِّزَةً يَحْصُلُ بها التَّفَوُّقُ والشُّهْرةُ؟![2].

لَوْ كانَ النابغةُ يَقِيسُ قوةَ الفخرِ بقوةِ الكثرةِ؛ بناءً على ظاهرِ المقامِ: لاختارَ التعبيرَ بـ: (الغُرُّ)؛ كما اختارَه الصُّولِيُّ، وكما اختارَ التعبيرَ بجَمْعِ الكثرةِ: (الجفان)، و: (السيوف)، ولكنهُ الحُكْمُ المُضْطَرِبُ الذي صدَر عن نَفْسِ عَبْدٍ هزَمَتْهَا وزلْزَلَتْها معاني الشَّاعِرِ الْمَلِكِ حسَّانٍ كالذي ذكرتُه مِن قبلُ!!. ولم يُعلِّلِ الصُّوليُّ لحُكْمِه في قولِه: (**إلا أنَّ الغُرَّ أجَلُّ لفْظًا مِن البِيضِ**)، ولا ريبَ أنه يقصدُ: أنَّ: (الْغُرَّ) أجلُّ معنًى لفظٍ مِن معنًى لفظِ: (البِيضِ)؛ لأنَّ معنًى: (أجَلّ) لا يتعلَّقُ باللفظِ مِن حيثُ هوَ جَرْسٌ وصَوْتٌ؛ فلعَلَّ ما ذكَرْتُه تفسيرٌ لهذا الحُكْمِ، وتعليلٌ لهُ[3].

١قراءة في الأدب القديم، ص: (و/و).

٢أي: دلالةُ صيغةِ القِلَّةِ: (الجفنات)؛ مِن التفوقِ والتّميّزِ والشُّهْرةِ، فالتعبيرُ بـ: (الغُرُّ) في نُورِ ما ذكرتُ هو الآنَسُ والألصقُ والأبَرُّ بهذهِ الصيغةِ في نُورِ هذهِ الدلالةِ لـ: (الجفنات) – مِن التعبيرِ بغيرِ هذه اللفظةِ، ومِن حملِها على معنى الشُّهْرةِ فقط؛ كما في قولِ قدامةَ: "فمِن ذلك أنَّ حسَّانًا لم يُرِدْ بقولِه: (الغر): أنْ يجعلَ الجفانَ بِيضًا، فإذا قصر عن تصيير جميعِها بِيضًا نقَص ما أرادَه، لكنه أرادَ بقولِه: (الغر) المشهورات؛ كما يقال: (يوم أغر)، و: (يد غرّاء)، وليس يُراد البياضُ في شيءٍ مِن ذلكَ؛ بل يُراد الشُّهْرةُ والنَّباهةُ". انتهى مِن: نقد الشعر، ص:٩٣. وينظر: خزانة الأدب ١١٤/٨. وكما في قولِ البغداديِّ نقلًا عن العينيِّ عن ابنِ يسعونَ: "وأمَّا (الغُرُّ) هنا فليس جمعَ غُرَّة، بل البِيضُ المشرِفاتُ؛ مِن كثرةِ الشُّحُومِ وبياضِ اللُّحُومِ، وهيَ جمعُ غرَّاء. ويجوزُ أنْ يريدَ بها المشهورةَ المنصوبةَ للقِرَى". انتهى مِن: خزانة الأدب ١١٥/٨. ومِثْلُ ذلك ورَد في: وينظر: أنوار الربيع في أنواع البديع ٢٠٩/٤. معَ ضميمةِ عدمِ بيانِهم جميعًا داعيَ الشُّهرةِ والنَّباهةِ مِن سياقِ القصيدةِ. وقولُه: (المشرفات) في عبارةِ المدني: (المشرقات).

٣وقال أسامة بن منقذ: "وفرَّطَ في قولِه: (الغُرُّ)؛ لأنَّ السَّوادَ أمْدَحُ مِن البَيَاضِ؛ لكثرةِ الدُّهْنِ =

(٢) والتعبيرُ باللَّمَعَانِ في قولِه: (يَلْمَعْنَ)؛ لأنهُ أَلْصَقُ بمعنَى التَّميُّزِ والشُّهْرةِ والتَّفَوُّقِ، وهذا ظاهرٌ، وكأنَّ هذا المعنى: (يَلْمَعْنَ) مِصْبَاحُ يُضِيءُ الطريقَ لفَهْمِ ذلكَ مِن صيغةِ القِلَّةِ: (الجفناتُ)، ولاحِظْ أنه قالَ: (يَلْمَعْنَ) – دونَ: (تَلْمَعُ) –؛ ليُحَقِّقَ إرادةَ القِلَّةِ في: (الجفنات)، ويُمكِّنَ المعنى المفهومَ مِن القِلَّةِ فيها، ويشيرُ إلى وجهِ الارتباطِ بينهما: (الجَفَنَاتُ – يَلْمَعْنَ). وفي اللَّمعَانِ معنًى هوَ أَلْصَقُ بالجُودِ العالِي، بل بالجودِ العَلِيِّ؛ كجُودِ حسَّانٍ وقومِه، وقَرْيِهِم؛ وهو معنَى السُّرْعةِ؛ قال ابنُ فارسٍ: "اللامُ والميمُ والعينُ أصلٌ صحيحٌ يدلُّ على إضاءةِ الشيءِ بسُرْعةٍ؛ ثم يُقاسُ على ذلكَ ما يجري مَجْرَاهُ؛ مِن ذلكَ: لمَع البرقُ وغيرُه؛ إذا أضاءَ، فهوَ لامِعٌ، ولمَع السيفُ، وما أشْبَه ذلك ... فأمَّا قولُهُم: (التمعْتُ الشيءَ)؛ إذا اخْتَلَسْتَه: فمحمولٌ على ما قلناه مِن الخِفَّةِ والسُّرْعةِ ..."[١].

ويبرزُ معنَى اللَّمعانِ التَّجدُّدُ في صيغةِ المضارعةِ: (يَلْمَعْنَ)، وفي هذا تمكينٌ للمعنى الظاهرِ، والمعنى السياقِيِّ الذي اسْتَدْعَاهُ؛ فهل ترى أنَّ للتعبيرِ بـ: (يَبْرُقْنَ)، أو: (يُشْرِقْنَ) مِن أدنى حِكْمةٍ؟!، إنَّ اللَّمعانَ أصلٌ مِن أصليْنِ مِن المعنى تُفَسَّرُ به مادَّةُ: (برق)[٢].؛ فهو أقوى مِن البَرْقِ والبَرِيقِ في نفسِه؛ فيكونُ أقوى في مناسبةِ التَّميّزِ والشُّهْرةِ والتَّفوّق منه. وهو أقوى – كذلك – في هذا مِن

=

والقِرَى فيها". انتهى مِن: البديع في نقد الشعر، ص:١٤٦. ولفظُ أوَّلِ كلامِه في خزانة الأدب:٨/١١٤: "لأنَّ السُّودَ أمدحُ مِن البِيضِ". فلعلَّه يرى أنَّ الأفضلَ أنْ يقولَ الشاعرُ: (لنا الجفنات السُّودُ).

١معجم مقاييس اللغة ٥/٢١١–٢١٢. مادة: (ل م ع).

٢ينظر: معجم مقاييس اللغة ١/٢٢١. مادة: (ب ر ق).

الإشراقِ؛ لأنَّ مادَّتَه تدورُ على إضاءةٍ وفَتْحٍ[1]. والإضاءةُ فيه أدْوَمُ منها في اللَّمعانِ، فهو أقوى منه في ذاتِه؛ لكِنَّ اللَّمعانَ أدلُّ على معنَى التَّميُّزِ والشُّهْرةِ والتَّفَوُّقِ؛ لأنه بمعونةِ الجفناتِ بمثابةِ مَن يُنادِي بأعلى صوتِه بحرارةٍ على كرمِ حسَّانٍ وقومِه؛ مُعْلِنًا عنه، مُحتفِلًا به، فيعلُو صوتُه، ويغيبُ، ويذهبُ، ويجيءُ، وهكذا؛ وأمَّا الإشراقُ ففيه بُرُودٌ[2].

(٣) والتعبيرُ بـ: (الضُّحَى)؛ فقولُ المرزبانيِّ: **(وقال قومٌ مِمَّنَ أنكَرَ هذا البيتَ في قولِه: (يَلْمَعْنَ بالضُّحَى)، ولم يقُل: (بالدّجى)** [3]**.**: نقدٌ لا يُلاحِظُ

١ينظر: معجم مقاييس اللغة ٣/٢٠٤. مادة: (ش ر ق).

٢ونقَل البغداديُّ عنِ العينيِّ عن ابنِ يسعونَ أنَّ في: (يلمعن) معنى الشُّهرة؛ أي: أنَّ بياضَ الجفناتِ مشهورٌ؛ قال: "... ويجوزُ أنْ يريدَ بها – (يقصد: الغُرّ) – المشهورةَ المنصوبةَ للقِرَى. وكذلك: (يلمعن) هو المستعمَلُ في هذا النحوِ الذي يُدَلُّ بهِ على البياضِ؛ كما تقولُ: لَمَعَ السَّرابُ، ولَمَعَ البرقُ". انتهى مِن: خزانة الأدب ٨/١١٥. لكنه لم يبيِّن منزعَ هذا المعنى مِن سياقِ القصيدةِ. – وجاء في أنوار الربيع في أنواع البديع ٤/٢٠٨: "وقلتَ: (يلمعن)، واللَّمْعُ شيءٌ يأتي بعدَ شيءٍ، ولو قلتَ: (يُشْرِقْنَ) لكانَ أكثرَ؛ لأنَّ الإشراقَ أدْوَمُ مِن اللَّمعانِ". وجاءَ فيه أيضًا ما نقلَه البغداديُّ بإيجازٍ شديدٍ. ينظر: أنوار الربيع في أنواع البديع ٤/٢٠٩.

٣وقال قدامةُ: "وأمَّا قولُ النابغةِ في: (يلمعن بالضحى)، وأنه لو قالَ: (بالدجى): لكانَ أحْسَنَ مِن قولِه: (بالضحى)؛ إذ كلُّ شيءٍ يلمعُ بالضحى –: فهذا خلافُ الحقِّ، وعكسُ الواجبِ؛ لأنه ليس يكادُ يلمعُ بالنهارِ مِن الأشياءِ إلا السّاطعُ النُّورِ الشَّديدُ الضِّياءِ، فأمَّا الليلُ فأكثرُ الأشياءِ مِمَّا لهُ أدنى نُورٍ وأيْسَرُ بَصِيصٍ يلمعُ فيهِ؛ فمِن ذلكَ الكواكبُ، وهيَ بارزةٌ لنا، مُقابِلةٌ لأبصارِنا، دائمًا تلمعُ بالليلِ، ويقِلُّ لمعانُها بالنهارِ حتَّى تخفَى، وكذلكَ السّرجُ والمصابيحُ؛ ينقصُ نُورُها؛ كلَّما أضْحَى النهارُ، وفي الليلِ تلمعُ عيونُ السِّباعِ؛ لشدةِ بصيصِها، وكذلكَ اليَرَاعُ حتى تخال نهارًا". انتهى مِن: نقد الشعر، ص:٩٣. وينظر: البديع في نقد الشعر، ص:١٤٦. وأنوار الربيع في أنواع البديع ٤/٢٠٩. وقال أسامة بن منقذ: "وفرَّطَ في قولِه: (يلمعن بالضحا)؛ وهو قادرٌ على أنْ يقولَ: (بالدُّجَى)؛ لأنَّ كلَّ =

المبالغةَ في الفخرِ مِن حيثُ هو فخرٌ، ولا مِن حيثُ هو فخرُ سادةٍ أشرافٍ يَقْعُدُونَ للقَرْي؛ لأنه مقصدُ مقاصدِهِم، كأنّ حياتَهُم مقصورةٌ عليه، إلى آخِرِ ما ذكرتُه مأخوذًا مِن القصيدةِ، أي: لا يُراعِي الدَّاعِيَ السِّيَاقِيَ إلى التعبيرِ بصيغةِ القِلَّةِ: (الجفنات)؛ إنَّ حسَّانًا يريدُ أن يقولَ: إن كرمَهُم في ذاتِه عظيمٌ كثيرٌ؛ لأن القَرْيَ بالنهارِ أكثرُ مِن القَرْيِ بالليلِ، فهم قومٌ تُؤلَفُ بيوتُهُم، وذلك الإلْفُ يتحَقَّقُ بالنهارِ أكثرَ مِن تحقُّقِه في الليلِ، ثم إنه قالَ: **(وَنَدْمانِ صِدْقٍ تُمْطِرُ الخيرَ كَفُّهُ * إذا رَاحَ فَيَّاضَ العَشِيَّاتِ خِضْرَمَا * وَصَلْتُ بِهِ كَفِّي، وَخَالَطَ شِيمَتِي)**، وإمْطَارُ كَفِّهَ الخيرَ يكونُ أكثرَ بالنهارِ؛ لأنه أسهلُ وأسرعُ، وكذلكَ إلْفُ البيتِ؛ ولهذا عبَّر بالباءِ، فقال: **(يَلْمَعْنَ بالضُّحَى)**، ولم يقُل: (يَلْمَعْنَ فِي الضُّحَى)، فالتعبيرُ مع الباءِ الدالةِ على الالتصاقِ يدلُّ على شمولِ المعنى الذي جرَتْ فيه النهارَ كلَّه أو معظمَه، وأما معَ التعبير بـ: (في): فيكونُ المعنى في بعضِ النهارِ، لا فيهِ كلِّه، وبهذا يكونُ التَّميُّزُ والتَّفوُّقُ. ثم هو أشهرُ قَرْيٍ وأشرفُه وأحْسَنُه؛ على ما يدلُّ عليه التعبيرُ بالضحى؛ فلهذا جعَل الجفناتِ الغُرَّ يلمَعْن بالنهار، وذَكَرَ النهارِ بذِكْرِ الضُّحَى؛ مجازًا مُرْسَلًا؛ لِعَلاقَةِ الجزئيَّةِ[1]. والجفناتُ إذا كانَتْ

=

شيءٍ يلمعُ في الضحا". انتهى مِن: البديع في نقد الشعر، ص:١٤٦. وينظر: خزانة الأدب ١١٤/٨. جاءَ في خزانة الأدب ١١٣/٨. نقلا عن الأغاني: "وقلتَ: (يلمعن بالضحى)، ولو قلتَ: (يبرقن بالدجى): لكانَ أبلغَ في المديحِ؛ لأنَّ الضيفَ في الليلِ أكثرُ". ولم أجِدْ هذا في الأغاني في أخبارِ النابغةِ ونسَبِه.

١ونستأنِسُ في بلاغةِ التعبير بالضحى بقولِ البقاعيِّ فيه في سورةِ الضحى: "﴿وَٱلضُّحَىٰ﴾[الضحى:١]. فذكر ما هو أشرفُ النهارِ، وألطفُه، وهو زهرتُه، وأضوأُه، وهو صدرُه، وذلك وقتُ ارتفاعِ الشمس؛ لأنَّ المقسم لأجله أشرف الخلائق، وذلك يدل على أنه

=

تُضِيءُ بسُرْعةٍ في النهارِ، بل في الضُّحَى منهُ: فكيفُ يكونُ حالُهَا في الليلِ الذي يلمَعُ فيه البرقُ وغيرُه؟، فلا داعِيَ مِن سياقِ القصيدةِ للتعبيرِ بالدُّجَى، وإذا لم يكن له داعٍ فلا وجْهَ للتعبيرِ بـ: (يَبْرُقْنَ) أيضًا؛ لأنه الألصقُ بالدُّجَى، واللَّمَعَانُ الألصقُ بالضُّحَى، فظهَر بما سبَق حِكْمةُ التعبيرِ بـ: **(يَلْمَعْنَ)**، و: **(بالضُّحَى)**. وفي قولِه: **(... مِمَّنَ أنكَرَ هذا البيتَ ...)**: إشارةٌ إلى أنَّ عدمَ إصابةِ الشَّاعرِ في بعضِ عناصرِ البيتِ، فكانَ مَعِيبًا فيه: مِن شأنِه أنْ يَعِيبَ البيتَ كلَّه، فكيفَ يكونُ نصيبُ البيتِ مِن البلاغةِ؛ إذا عِيبَ فيه أكثرُ مِن عُنْصُرٍ؟.

وقد وجدْتُ أصلًا لِمَا قلتُه؛ وإنْ لم يكشِف قائلُه عن الاتِّصالِ بينَه وبينَ سياقِ القصيدةِ؛ جاء في خزانة الأدب نقلًا عن العينيِّ عن ابنِ يسعونَ: "... وكذلك الضحى والضَّحاء؛ لأنهما بمعنًى؛ على أنَّ الضحى أدلُّ على تعجيلِهم القِرَى، وأمَّا القولُ بأنَّ: (يبرقن في الدجى) أبلغُ فساقِطٌ؛ لأنه إنما أرادَ أنَّ إطعامَهُم موصولٌ، وقِرَاهُم في كلِّ وقتٍ مبذُولٌ؛ لأنه قد وصَف قبْلَ هذا قِرَاهُم بالليلِ؛ حيثُ قال: **(وإنَّا لنقري الضيفَ إنْ جاءَ طارقًا * مِن الشَّحْمِ ما أضْحَى صحيحًا مُسَلَّمَا)**، ويُرْوَى: ما أمْسَى"[1].

فبذِكْرِ الضحى هنا الذي هو جزءٌ مِن النهارِ يرجِعُ هذا البيتُ إلى البيتِ الذي ذكَر فيه الشاعرُ قِرَاهُم في المساءِ، فتتكوَّنُ صُورةٌ لقِرَاهُم؛ وهي أنه يشملُ الليلَ والنهارَ. على أنَّ ذكرَ الضحى يدلُّ على حصولِ قِرَاهُم بالنهارِ، فيكونُ

=

يبلغ مِن الشرف ما لا يبلغه أحد مِن الخلق". انتهى مِن: نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، تأليف: الإمام برهان الدين أبي الحَسَن إبراهيم بن عمر البقاعيّ ٢٢/١١٠.

١ خزانة الأدب ٨/١١٥.

حصولُه في الليلِ مِن بابِ أَوْلَى؛ لأنه أقلُّ فيه منه بالنهارِ؛ وهذا على روايةِ: (ما أضحى صحيحا مسلما).

وبَعْدُ: ففي قولِ المرزبانيِّ: **(وقد رُدَّ هذا القولُ، واحْتَجَّ فيهِ قومٌ لحسّان بما لا وَجْهَ لذِكْرِه في هذا الموْضِعِ)**: أقولُ: لم أقِفْ على ما احْتُجَّ بهِ لحسَّانٍ، وظاهرُ الكلامِ أنَّ المرزبانيَّ لا يُسَلِّمُ بهذا الاحتجاجِ؛ لأنه عندَه ضعيفٌ، ولا أدْرِي لماذا لم يذكُرْهُ؛ معَ أنه ذكَر نقدَ النابغةِ، وكلامَ الصوليِّ؟!.

***

الْمَبْحَثُ الثَّالِثُ:

شُبْهَةٌ ضَعِيفَةٌ؛ تَقْرِيرُهَا، وَوَجْهُ ضَعْفِهَا:

وأَخْتِمُ هذهِ القراءةَ بتقريرِ شُبْهةٍ ضعيفةٍ، ورَدِّهَا؛ وإنْ كانَتْ تُذْكَرُ كثيرًا في كُتُبِ الأدبِ والنقدِ والبلاغةِ؛ وهيَ أنَّ الشَّاعِرَ فعَل كذا أو كذا؛ مِن أجلِ مُراعَاةِ الوزنِ، أو القافيةِ، أوِ الوزنِ والقافيةِ مَعًا؛ فهنا لو قالَ: (الجِفَانُ) في موضِعِ: (الجفَنَاتُ): لانْكَسَرَ الوزنُ، وكذلكَ لو قيلَ: (وسيوفُنا) في موضِعِ: (وأسيافُنا)، و: (يَسَلْنَ)، أو: (يَفِضْنَ) في موضِعِ: (يَقْطُرْنَ). ولو قيلَ: (لَنَا الجِفَانُ الْبِيضُ يَبْرُقْنَ بالدُّجَى): لكانَ كذلكَ. ولو قيلَ: (وسيوفُنا (يجرين – أو: يسلن – أو: يفضن) مِن نجدةٍ، أو نجداتٍ دمًا – أودِمًا – أو دِمَاءً): لكانَ كذلكَ أيضًا. ولا ينكَسِرُ لو عُبِّرَ بـ: (البِيضُ) في موضِعِ: (الغُرُّ)؛ لأنَّ وَزْنَهما واحدٌ، ووَحْدَتَهُما المُوسيقيَّةَ واحدةٌ، وكذلكَ لو قيلَ: (يَبْرُقْنَ) في موضِعِ: (يَلْمَعْنَ)، و: (بالدُّجَى) في موضِعِ: (بالضُّحَى). و: (يَجْرِينَ) في موضِعِ: (يَقْطُرْنَ).

والتعليلُ بذلكَ لو كانَ صحيحًا في ذاتِه لاطَّرَدَ؛ فكانَ عِلَّةً لكلِّ مُكوِّناتِ القصيدةِ. ثم مَن يقولُ بهذا التَّعْليلِ نَسِيَ أنَّ "المعانيَ كما تختارُ لأنفسِها الألفاظَ: تختارُ لها الأساليبَ والطرائقَ والأوزانَ؛ مِمَّا يكونُ في طَوْرِ عمليَّةِ التَّجْربةِ الشُّعُوريَّةِ"[1]. ويذهبُ إلى القولُ بأنَّ الوزنَ والقافيةَ شيءٌ غيرُ المعنى الشِّعْريِّ، ويَنْسَى أنَّ اللغةَ العربيَّةَ لُغَةٌ شِعْرِيَّةٌ، ويُقَدِّرُ وجودَ انْفِصَالٍ عندَ الشَّاعرِ بينهما وبينَ باقي العناصِرِ المُكوِّنةِ للشِّعْرِ؛ وهو في عَمَلِيَّةِ وِلادَةِ هذهِ التَّجْرَبةِ، وهوَ يُعانِيَ هذهِ التَّجْرِبَةَ، وهوَ يَخْلُقُ القصيدةَ؛ غافِلًا عَنْ أنَّ (الشِّعْرَ/ العربيَّ العَمُودِيَّ): "يتركَّبُ مِن عناصرَ كثيرةٍ؛ هذهِ العناصرُ تتركَّبُ تركيباتٍ مُعقَّدةً، وتتفاعَلُ معَ بعضِها تفاعُلاتٍ شديدةَ التَّعْقيدِ؛ مِن حيثُ كونُها نشاطًا لُغَوِيًّا كامِلًا؛ فتَرَى – مَثَلًا – (الألفاظَ، وصُوَرَ التّراكيبِ النَّحْويَّةِ، والوزنَ، والقافيةَ، وحرفَ

(١) مقدمة في فقه حذف حروف المباني في البيان العلِيِّ والبيانِ العالي، تأليف الدكتور: طه السيد عبد النبي محمود، ص:٩٢.

الرَّوِيِّ، وحركةَ حرفِ الرَّوِيِّ)، ترَى هذهِ المُكوِّناتِ – التي هيَ بعضُ المُكوِّناتِ، وليْسَتْ كلَّها – تعملُ معَ بعضِها مُتَّسِقةً مُتناغِمةً يُؤَثِّرُ بعضُها في بعضٍ؛ لتصنعَ النَّصَّ الذي يُقَالُ فيهِ: (نَصٌّ شِعْرِيٌّ)، وعلى التَّدْقيقِ لا يتحقَّقُ انفصالٌ بينَ هذهِ العناصرِ الشِّعْرِيَّةِ إلَّا في داخِلِ الذِّهْنِ؛ لا يُوجَدُ ما يُسَمَّى الوزنَ والقافيةَ مُنْفَصِلَيْنِ عَنْ ألفاظِ القصيدةِ، بل إنَّ ألفاظَ القصيدةِ هيَ التي صَنَعَتْ شيئًا مُوسِيقِيًّا مَيَّزْتَهُ أنتَ في ذهنِكَ إلى عُنْصُرٍ موسيقيٍّ مستقِلٍّ، وهوَ لا ينفصِلُ في الخارجِ، وإذا كنتَ تشُكُّ في ذلكَ فحاوِلْ أنْ تَنْزِعَ الوزنَ والقافيةَ مِن أيِّ بيتٍ معَ بقاءِ الألفاظِ على حالِها النَّحْويِّ والصَّرْفِيِّ؛ هل يبقَى اللفظُ؟، لو قلتَ: سأغيِّرُ في مواضِعِ الألفاظِ فأنتَ تُغَيِّرُ في تركيبِها النَّحْويِّ، ولو قلتَ: سأغيِّرُ في هيئةِ اللفظةِ الواحدةِ فأنتَ تُغيِّرُ في البِناءِ الصَّرْفيِّ لها ... والحقُّ: أنَّ الوزنَ والقافيةَ لا يَصْنعانِ الشِّعْرَ؛ مِن حيثُ كونُهما نغمًا يتركَّبُ على المعنى؛ وإنما هما نَفْسُ الألفاظِ، هما نَغَمٌ في جِسْمِ الألفاظِ نفسِها، هما صوتُ الألفاظِ، هما نَفْسُ الألفاظِ"[(١)]. نَعَمْ؛ قد يَضْعُفُ شاعرٌ؛ فيتكلَّفُ في موضِعٍ ما، فيُعبِّرُ بكيت وكيت؛ مِن أجلِ الوزنِ، أو القافيةِ؛ ولكنَّ ذلكَ معَ الكِبَارِ مِن الشُّعراءِ عمومًا، ومعَ الشُّعَراءِ الجاهليِّينَ المَنْفُوحِينَ خصوصًا، ومعَ مَن رُزِقَ نَفْحةَ الشَّاعريَّةِ والشِّعْرِيَّةِ عمومًا،:قليلٌ جِدًّا[(٢)].

ولهذا الفَهْمِ أصلٌ في كلامِ لشيخِ البلاغيينَ عبدِ القاهرِ الجرجانيِّ في الفَصْلِ الذي عقَدَهُ؛ للقولِ على فُرُوقٍ في الخَبَرِ في سياقِ حديثِه عن الفرقِ بينَ الإثباتِ إذا كانَ بالاسْمِ – وبينَه إذا كانَ بالفعلِ؛ قالَ: "١٨٧– ... فمِنَ البيِّنِ في ذلكَ قولُ الأَعْشَى:

(١) ألا عِمْ صباحًا: شرح أدبي عربي على القصيدة العذبة النبيلة لملك الشعراء امرئ القيس، قرأها وكتب شرحها: أبو قيس محمد رشيد، ص:٢١–٢٣.

(٢) ينظر: مقدمة في فقه حذف حروف المباني في البيان العلِيِّ والبيانِ العالي، تأليف الدكتور: طه السيد عبد النبي محمود، ص:٩٢.

لَعَمْـرِي لَقَـدْ لَاحَـتْ عُيُـونٌ كَثِيـرَةٌ إِلَـى ضَـوْءِ نَـارٍ فِـي يَفَـاعٍ تَحَـرَّقُ
تُشَـبُّ لِـمَقْرُورَيْنِ يَصْـطَلِيَانِهَا وَبَـاتَ عَلَـى النَّـارِ النَّـدَى وَالْـمُحَلَّقُ

معلومٌ أنهُ لو قيلَ: (إلى ضوءِ نارٍ مُتحرِّقةٍ): لَنَبَا عنهُ الطَّبْعُ، وأنْكَرَتْهُ النَّفْسُ، ثم لا يكونُ ذاكَ النُّبُوُّ وذاكَ الإنكارُ؛ مِن أجلِ القافيةِ، وأنها تَفْسُدُ بهِ؛ بل مِن جهةِ أنه لا يُشْبِهُ الغرضَ، ولا يَلِيقُ بالحالِ. ١٨٨- وكذلكَ قولُه:

أَوَكُلَّمَـا وَرَدَتْ عُكَـاظَ قَبِيلَـةٌ بَعَثُـوا إِلَـيَّ عَـرِيفَهُمْ يَتَوَسَّـمُ

وذاكَ لأنَّ المعنى في بيتِ الأعشى: على أنَّ هناكَ مُوقِدًا يتجدَّدُ منهُ الإهابُ والإشعالُ حالًا فحالًا، وإذا قيلَ: (مُتحرِّقة): كانَ المعنى أنَّ هناكَ نارًا قد ثبتَتْ لها وفيها هذه الصفةُ، وجَرَى مَجْرَى أنْ يقالَ: (إلى ضوءِ نارٍ عظيمةٍ)؛ في أنهُ لا يفيدُ فعلًا يُفْعَلُ = وكذلكَ الحالُ في قولِه: **(بَعَثُوا إِلَيَّ عَرِيفَهُمْ يَتَوَسَّمُ)**؛ وذلكَ لأنَّ المعنى: على توسُّمٍ وتأمُّلٍ ونَظَرٍ يتجدَّدُ مِنَ العَرِيفِ هناكَ حالًا فحالًا، وتصفُّحٍ منهُ الوجوهَ واحدًا بعدَ واحدٍ، ولو قيلَ: **(بَعَثُوا إِلَيَّ عَرِيفَهُمْ مُتوَسِّمًا)**: لم يُفِدْ ذلكَ حقَّ الإفادةِ"[(١)].

والشاهدُ الأولُ: **(تَحَرَّقُ)**: يدلُّ على أنَّ مُراعاةَ الوزنِ أو القافيةِ لا ينبغي أنْ يكونَ تعليلًا لصُورَةٍ مِن صورِ النَّظْمِ؛ كالاسميَّةِ، أو الحذفِ، ونحوِ ذلكَ، وهذا الفعلُ أصلُه: (تَتَحَرَّقُ)؛ فحُذِفتْ منه إحدى التَّاءيْنِ. والشاهدُ الثاني: **(يَتَوَسَّمُ)**: يدلُّ على أنَّ مُراعاةَ القافيةِ فقط لا ينبغي أنْ تكونَ كذلكَ؛ لأنه لو قيلَ: **(مُتوَسِّمًا)**: لضاعَتِ قافيةُ القصيدةِ، ولكانَ وزنُ شَطْرِ هذهِ الكلمةِ صحيحًا.

***

(١) دلائل الإعجاز، ص:١٧٦-١٧٧.

الخاتمة

أُجدِّدُ حمدًا للهِ ربِّ العالمينَ، وصلاةً وسلامًا على أفصحِ العربِ قاطبةً؛ نبيِّنا محمدِ بنِ عبدِ اللهِ، وعلى آلهِ وصحبِه، ومَن تبِعَهُم بإحسَانٍ إلى يومِ الدِّينِ، وبعدُ: فإنَّ هذهِ القراءةَ لنَقْدِ النَّابغةِ الذُّبْيانيِّ بَيْتَي حسَّانِ بنِ ثابتٍ: (لَنَا الجَفَناتُ الغُرُّ يَلْمَعْنَ بالضُّحَى ...)إلخ: سلَكَتْ مَسْلَكَ النَّظْرةِ الكُلِّيَّةِ للنَّصِّ الشِّعْرِيِّ؛ والتي تَعْتَنِي بمُراقَبَةِ حركةِ المعنَى فيهِ، والنَّظَرِ في جميعِ معاني القصيدةِ –؛ وقد كانَ ذلكَ في هذه الدراسةِ بما يُحقِّقُ لها هدفَها، وليسَتْ هذه النَّظْرةُ الكُلِّيَّةُ مقصودةً لذاتِها؛ حتى يكونَ فيها ما يقتضيهِ المسلكُ الكلِّيُّ –؛ مُسْتَحْضِرَةً أنَّ لكلِّ قصيدةٍ سياقَهَا الخاصَّ بها –؛ وإنْ كانَ يُطْلَقُ عليها: أنها في غَرَضِ الرِّثاءِ، أوِ الفخرِ، أوِ الهجاءِ، أوْ غيرِ ذلكَ مِن أغراضِ الشِّعْرِ الكُبْرَى العَامَّةِ –؛ وذلكَ مِن أَجْلِ الفَصْلِ البلاغِيِّ التفصيليِّ الاستدلاليِّ السِّياقِيِّ في نَقْدِ بيتَي حسَّانٍ المذكورِ؛ هلِ الحقُّ معَ النَّاقِدِ الأوَّلِ النابغةِ، أو الخنساءِ؟، أم هلِ الحقُّ معَ حسَّانٍ؟؛ وقد أبْصَرتْ بهذا المسلكِ أنَّ الحقَّ معَ حسَّانٍ؛ وذلكَ ما لم يَقِفْ عليهِ صاحِبُ هذهِ القراءةِ في دراسةٍ سابقةٍ.

وفي تراثِنا قَدْرٌ كبيرٌ مِن الأحكامِ النقديةِ التي أصدرَها الأُدبَاءُ، والشُّعراءُ، والعلماءُ، والنُّقادُ؛ مِن أهلِ البصرِ بالشِّعْرِ، وسَمْتُها الإيجازُ، وغيرُ قليلٍ منها مُعَلَّلُ الحُكْمِ، وتعليلُه مُوجَزٌ، وغيرُ قليلٍ منها لم يَصْحَبْه تعليلٌ، ولا بُدَّ مِن تفصيلِ المُجْمَلِ، وتعليلِ غيرِ المُعَلَّلِ بالتَّفْصِيلِ، ولا بُدَّ مِن تقريبِ تُرَاثِ الأسلافِ النَّقْدِي، وإحيائِهِ؛ بتجديدِ فِقْهِه ومراجعتِه وتأمُّلِه، وبهذا وغيرِه ينمو العِلْمُ والمعرفةُ مِن داخلِ العِلْمِ والمعرفةِ؛ وذلكَ المَسْلَكُ الكُلِّيُّ – وغيرُه مِمَّا يتراءى للدارسينَ – هو ما يَنْبَغِي أنْ يكونُ لهُ الحُضُورُ القويُّ في قراءةِ تلكَ الأحكامِ النقديَّةِ؛ فسَيَخْرُجُ لنا مِن ذلكَ تراثٌ نقديٌّ قديمٌ جديدٌ؛ فيهِ النَّفْعُ كلُّ النَّفْعِ لدِرَاسَاتِنَا الأدبيَّةِ والنَّقْديَّةِ والبلاغيَّةِ، ولم أطَّلِعْ على دراسةٍ جَمَعَتِ الأحكامَ النقديَّةَ في كتابِ: (الموشح) للمرزبانيِّ، وعالجَتْهَا، وأعادَتْ قراءَتَهَا، وحلَّلَتْ، وفصَّلَتْ، وعلَّلَتْ، إلى آخِرِ معالِمِ قراءةِ تلكَ الأحكامِ، وهكذا كُتُبٌ كثيرةٌ في تُراثِنَا العامِرِ بالكُنُوزِ المَكْنُونةِ المَسْتُورَةِ.

فهرس المصادر والمراجع

- أدوات التشبيه دلالاتها واستعمالاتها في القرآن الكريم، تأليف الدكتور: محمود موسى حمدان، نشر: مطبعة الأمانة، الطبعة الأولى ١٤١٣هـ-١٩٩٢م.
- الإعجاز البياني في صيغ الألفاظ دراسة تحليلية للإفراد والجمع في القرآن، تأليف الدكتور: محمد الأمين الخضري، نشر: مطبعة الحسين الإسلامية، الطبعة الأولى: ١٤١٣هـ-١٩٩٣م.
- ألا عِمْ صباحًا: شرح أدبي عربي على القصيدة العذبة النبيلة لملك الشعراء امرئ القيس، قرأها وكتب شرحها: أبو قيس محمد رشيد، قدم له الأستاذ الدكتور: خالد فهمي، نشر: مكتبة الآداب – القاهرة، ط:٢، ٢٠٢٠م.
- أنوار الربيع في أنواع البديع، تأليف: السيد علي صدر الدين بن معصوم المدني (١٠٥٢-١١٢٠هـ)، حقَّقَه وترجم لشعرائه: شاكر هادي شكر، مطبعة النعمان – النجف الأشرف، الطبعة الأولى ١٣٨٨هـ-١٩٦٨م.
- أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك، تأليف: الإمام أبي محمد عبد الله جمال الدين بن يوسف بن أحمد بن عبد الله بن هشام الأنصاري المصري المتوفى سنة ٧٦١هـ. ومعه كتاب: عدة السالك إلى تحقيق أوضح المسالك، وهو الشرح الكبير من ثلاثة شروح، تأليف محمد محيي الدين عبد الحميد. نشر: دار الطلائع للنشر والتوزيع، عام ٢٠٠٩م.
- البديع في نقد الشعر، لأسامة بن منقذ، تحقيق: الدكتور أحمد أحمد بدوي، والدكتور: حامد عبد المجيد، ومراجعة الأستاذ إبراهيم مصطفى، نشر: وزارة الثقافة والإرشاد القومي.
- البرهان في علوم القرآن، للإمام بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، نشر: مكتبة دار التراث، دون أيِّ معلومات أخرى.

– البلاغة القرآنية في تفسير البقاعي – الإفراد والتثنية والجمع أنموذجا: دراسة موازنة – معجم بلاغي، تأليف الدكتور: طه السيد عبد النبي محمود أحمد السيسي، نشر: دار الحرم للنشر والتوزيع، ط: الأولى ٢٠٢٤م.
– تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر وبيان إعجاز القرآن، لابن أبي الإصبَع المصري (٥٨٥ – ٦٥٤هـ). تقديم وتحقيق: الدكتور: حفني محمد شرف. نشر: المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، وزارة الأوقاف، جمهورية مصر العربية. ١٤٣٣هـ – ٢٠١٢م. دون بيان لرقم الطبعة.
– تناسب المفردات عند البقاعي في نظم الدرر دراسة بلاغية – رسالة دكتوراة – للباحث: طه السيد عبد النبي محمود، مخطوطة بكلية اللغة العربية بالقاهرة – جامعة الأزهر الشريف، عام ٢٠٢٢.
– خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب، تأليف: عبد القادر بن عمر البغدادي: (١٠٣٠–١٠٩٣). تحقيق وشرح: عبد السلام محمد هارون، نشر: مكتبة الخانجي بالقاهرة، دون أيِّ معلوماتٍ أخرى.
– دلائل الإعجاز، للشيخِ عبد القاهر الجرجاني، قرأه وعلّق عليه: محمود محمد شاكر، نشر: الهيئة المصرية العامة للكتاب، عام ٢٠٠٠م.
– ديوان البحتري، عُنِي بتحقيقِه وشرحه والتعليق عليه: حَسَن كامل الصِّيرفي، نشر: دار المعارف، ط: الرابعة، عام ٢٠١٧م.
– ديوان ابن الرومي، شرح الأستاذ: أحمد حسن بَسَج، نشر: دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، ط: الثانية، ١٤٢٣هـ–٢٠٠٢م.
– ديوان حسان بن ثابت، تحقيق: عبد الله سنده، نشر: دار المعرفة، بيروت – لبنان، ط: الأولى، ١٤٢٧هـ–٢٠٠٦م.
– ديوان حسان بن ثابت، شرحه وكتب هوامشه وقدّم له: عبدأ علي مهنا، نشر: دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، ط: الثانية، ١٤١٤هـ–١٩٩٤م.
– ديوان الفرزدق، شرحه وضبطه وقدم له: الأستاذ علي فاعور، نشر: دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، الطبعة الأولى ١٤٠٧هـ–١٩٨٧م.

- ديوان النابغة الذبياني – تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم – نشر: دار المعارف، الطبعة الثانية، دون أيِّ معلوماتٍ أخرى.
- شرح ديوان حسان بن ثابت الأنصاري، وضعه وضبط الديوان وصححه: عبد الرحمن البرقوقي، نشر: المكتبة التجارية الكبرى – مصر، ١٣٤٧هـ-١٩٢٩م.
- طبقات فحول الشعراء، لابن سلام الجمحي، قرأه وشرحه: محمود محمد شاكر، نشر: دار المدني بجدة، دون أيِّ معلومات أخرى.
- العمدة في صناعة الشعر ونقده، تأليف: أبي علي الحسن بن رشيق القيرواني، المتوفى سنة ٤٥٦هـ أو سنة ٤٦٣هـ، حققه وعلق عليه وصنع فهارسه: الدكتور: النبوي عبد الواحد شعلان، نشر: مكتبة الخانجي بالقاهرة، الطبعة الأولى ١٤٢٠هـ-٢٠٠٠م.
- قراءة في الأدب القديم، تأليف الدكتور: محمد محمد أبو موسى، نشر: مكتبة وهبة، ط:١، ٢، ٣، ٤، ٥. ١٤٣٩هـ-٢٠١٨م.
- كتاب الأغاني، لأبي الفرج علي بن الحسين الأصفهاني، المتوفى سنة ٣٥٦هـ-٩٧٦م. تحقيق: الدكتور إحسان عباس، والدكتور إبراهيم السّعافين، والأستاذ بكر عبّاس، نشر: دار صادر، بيروت – لبنان، ط:١ سنة ١٤٢٣هـ-٢٠٠٢م. و:ط:٢ سنة ١٤٢٦هـ-٢٠٠٥م. و: ط:٣ سنة ١٤٢٩هـ-٢٠٠٨م.
- الكتاب، لسيبويه، تحقيق: عبد السلام هارون، ط: الخانجي – الثالثة.
- المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، لضياء الدين بن الأثير، قدّمه وعلّق عليه: دكتور أحمد الحوفي، ودكتور بدوي طبانة، نشر: دار نهضة مصر للطبع والنشر، الفجالة – القاهرة، دون أيِّ معلومات أخرى.
- المحتسب في تبيين وجوه شواذ القراءات والإيضاح عنها، تأليف أبي الفتح عثمان بن جني، تحقيق: علي النجدي ناصف، والدكتور عبد الحليم النجار،

والدكتور عبد الفتاح إسماعيل شلبي، نشر: المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، ١٤١٥هـ-١٩٩٤م.

- معجم مقاييس اللغة لأبي الحسين أحمد بن فارس بن زكريا. ت: عبدالسلام هارون. ط: دار الفكر للنشر والتوزيع، دون أيِّ معلومات أخرى.
- مقدمة في فقه حذف حروف المباني في البيان العلِيِّ والبيانِ العالي، تأليف الدكتور: طه السيد عبد النبي محمود أحمد السيسي، حقوق الطبع محفوظة للمؤلِّف، ط: الأولى ١٤٤٥هـ-٢٠٢٤م.
- منهاج البلغاء، وسراج الأدباء، صنعة أبي الحسن حازم القرطاجني، تقديم وتحقيق: محمد الحبيب ابن الخوجة، نشر: دار الغرب الإسلامي، بيروت – لبنان، دون أيِّ معلوماتٍ أخرى.
- الموشح في مآخذ العلماء على الشعراء في عدة أنواع مِن صناعة الشعر، للمرزباني أبي عبيد الله محمد بن عمران بن موسى المرزباني (المتوفى: ٣٨٤هـ)، تحقيق: علي محمد البجاوي، نشر: نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، دون أيِّ معلوماتٍ أخرى.
- نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، تأليف: الإمام برهان الدين أبي الحَسَن إبراهيم بن عمر البقاعيّ، المتوفى سنة ٨٨٥هـ، خرَّج آياته وأحاديثه: عبد الرزاق غالب المهدي، نشر: دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، الطبعة الأولى ١٤١٥هـ-١٩٩٥م.
- نقد الشعر، تأليف: قدامة بن جعفر بن قدامة بن زياد البغدادي، أبي الفرج: (المتوفى:٣٣٧هـ)، نشر: مطبعة الجوائب – قسطنطينية، الطبعة: الأولى، ١٣٠٢هـ
- نقد الشعر، لقدامة بن جعفر، تحقيق وتعليق: الدكتور محمد عبد المنعم خفاجي، نشر: دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، دون أيِّ معلومات أخرى.

فهرس المحتويات

الموضوع	الصفحة
مقدمة المقصود	**٢٥٠١**
الْمَبْحَثُ الْأَوَّلُ: قِرَاءَةُ فِي نَقْدِ قَوْلِ حَسَّانٍ: (وَلَدْنَا بَنِي الْعَنْقَاءِ ...)إلخ البيت	٢٥٢٣
الْمَبْحَثُ الثَّانِي: قِرَاءَةُ في نَقْدِ تَعْبِيرِ حَسَّانٍ بِالْجَفَنَاتِ، وَالْغُرِّ، واللَّمَعَانِ: (يَلْمَعْنَ)، وَالضُّحَى، وَالْأَسْيَافِ، والقَطْرِ: (يَقْطُرْنَ)، و: (نَجْدَةٍ)، و: (دَمَا)	٢٥٣٠
المَبْحَثُ الثَّالِثُ: شُبْهَةٌ ضَعِيفَةٌ؛ تَقْرِيرُهَا، وَوَجْهُ ضَعْفِهَا	٢٥٦٥
الخاتمة	٢٥٦٨
فهرس المصادر والمراجع	**٢٥٦٩**
فهرس المحتويات	**٢٥٧٣**

تمَّ بحمدِ اللهِ – سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى –.

***